غسان كامل ونوس

في الضفة الأخرى

قصص

الإهداء

العتبة

قدمي فوق العتبة؛ أصوات غامضة، وأصداء ما تزال تدوّم في الفضاء المحيط: انتبه.. عتبة!

*

الأفق فكّ يتشارس، تتنابت فيه المخارز، وتتراكض الكائنات فوق حدوده المتناهية في اتجاهات متعددة..

منذ زمن أتشرد في محرابه صبح مساء، لم يكن مثل هذا الحشد من الأشلاء يتصاعد مسودّاً، ودخان الحرائق التي لا تظهر في المشهد يجعل الأمر أكثر غموضاً.

*

العتبة معبر محيّر، هل أنا داخل أم أني أخرج؟! الشرنقة تلفظني أم البوتقة تفتح فوّهة تليق بي،

أنا الضحلَ الضئيلَ، العصيَّ المتراكم، العنيد المستبسلَ..؟!

لم أنظر إلى الوراء، أُتخمت من مظاهر الخلف والهزيمة والشكوى، مللت من مشاعر المطارَد المنبتِّ المنكفئ المحاصَر..

لم أرفع رأسي أكثر، مخافة الحيّز الذي قد لا يراعي القامات!

*

لم يكن رفع الرأس ميسّراً، ولم يبرح أن يكون حلماً، وتجربة تتكرر.

الباب الحجري الضيق للبيت الترابي الفسيح لم يكن يسمح به، كأنما فتحة كهف يسهل إغلاقها أماناً، وهي تتسع لشخص ينحني. كنتَ مزهواً بأنك تعبرها من دون انحناء، والآخرون يطأطئون؛ كنتَ صغيراً، لكنك أطرقت مفكراً في الطريقة التي ستعبر بها حين تكبر!

غادرتَها إلى دار أخرى تطول قامة بابها، وتضيق فسحاتها وممراتها.. وكنتَ مطرقاً أيضاً!

*

«اخطف قرعة»! يقول المدرب الخاكي، على رأسك ألاّ يرتفع أكثر من زملائك الذين ليس لبعضهم رؤوس، وعليك أن تخفي قامتك، هامتك، وراء من يتقدمك في الرتل.

*

"الحافلة التي صارت تعبر المسافة الواصلة بين المفرق والمدينة لم تكن أكثر رحابة، تلك الحافلة يحق لها أن تتباهى بألوانها وحجمها وحمولتها، ويحقّ لنا أن نعتزّ بأننا لم نعد منتظرين بلا أمل. وحريّ بنا أن ننتشي، لأننا ملتحمون بأجساد كثيرة، بعضها جذاب يُتشهّى الاقتراب منه في أوقات أخرى.. "

سقف الحافلة يسمح لك بأن تقف، وتتمسك بشيء ما، مجاوروك يسندونك إن اهتزت الطريق، وما أكثر ما تهتز! لكن عليك أن تخفض رأسك، وتقرفص مع الجميع بأمر من السائق، كي يتغافل الشرطي، فيؤجل الحساب، وهذا أهون من التحصيل الفوري عن كل رأس مرفوع أمام الناس!

– أليس ذلك أشرف لنا جميعاً؟!

يصيح السائق شاتماً الساعة التي أوقف فيها حافلته ليلتقطك عن الطريق، لأنك قلت:

. لا أنحني لمخلوق!

تأخرتَ بسبب ذلك كثيراً عن دوامك، أنّبك بالمعروف وبالحسم وبأشياء أخرى.. هل تستطيع أن تضع عينيك في عينيه الشامتتين، ناهيك عن كآبتك التي تتضاعف..؟!

ماذا قلت بعدئذ، وتقول الآن.. وربما بعد حين؟! ها قد تكفلت الحافلات المستوردة خصيصاً، وتكاثرت كالذباب، بألا تسمح لأيّ كان بأن يرفع رأسه، أو حتى أن يتنفس بحرية!

*

الأشجار كانت تتشامخ عنك، وتترامى أغصانها في الفضاء المشمس، تنظر إليها باعتزاز وأنت تعبرها ماشياً أو راكباً وسائط ذلك الزمان، كنت تنحني لها بمودة حين تمر تحت فروعها، تتفيؤها، وتتملاها بامتلاء خارج حضنها؛ الأشجار تتوسل إليك الآن، تتحامى بك، وهي تتهاوى جوار الحارات التي تتوسع، ويتسارع العبور

فيها، فتستعين بالذاكرة.. يا للذاكرة وما تغص به، فتغص، تغص:

تأخرتَ بسبب ذلك عن الترفيع والمهمات والمسؤوليات، فاتتكَ الحظوظ والمكافآت.. لكنك أصررت على البقاء، ومازلت على قيد الحياة؛ تلك معجزة أو تكاد، بعد كل تلك السنين.. والمعجزة الأكبر أنك ما تزال تفكر في العتبة واجتيازها، وها أنت فوقها تماماً.

*

العتبة.. حلم الليل وكابوس النهار.

تعددت، وتكاثفت، حتى صار التعثر بها عادة، وغدا العرج أليفاً، رغم هزء الآخرين الذين لا عتبات أمامهم، ولا يمشون!

كنت أراهن بيني وبين عرجي أن آثاراً لأقدام وأشياء أخرى لا بد ظاهرة في بطونهم وصدورهم وربما وجوههم، لو قدر لهم أن ينقلبوا على ظهورهم حتى من الضحك عليّ!

ليس في نيتي القفز، لا أودّ ذلك، لم أعتد، ولست متأكداً من قدرتي عليه؛ صحيح أن هذا الأمر يتوقف على أبعاد العتبة وتضاريسها وجنسها، لكنني.. لم أكن قادراً على النكوص، أو المكوث في بوتقة كالقبر المنذور.

لم يتوقعوا أن أصل، فالمكان بعيد، وأصوات لهفتي لا تصل إلى آذانهم، ولم يكونوا في أمان؛ زرعوا النتوءات، وأقاموا الحواجز، ودجّنوا الحراس، وأوغروا صدور القادمين لا مناص؛ هل يصلون؟! لا شك في قدرتهم على القفز حتى فوق الأشلاء، ذاك الذي أوصلهم مرات..

*

لم أنظر إلى الأعلى، لم أحنِ قامتي. سأتقدم، هل سيضرب رأسي شيءٌ صلب؟!

ثمة سؤال كان يتردد؛ كنت أحسه بين الشفاه التي قد لا تصرح به، وفي العيون الجاحظة التي تنتظر بانتقام، وفي الملامح الكسيرة في عناصر وجه أليف نضر، في العابرين بسرعة، المتقافزين فوق العتبة، الواقفين أمامها مترددين حائرين مشككين..

ثمة سؤال لم أفكر في جوابه، ولم أقضِ الساعات شارداً في طريقة لتجاوزه: متى سيتهشم هذا الرأس؟!

سؤال أم رهان أم رغبة؟!

قبل الآن تراهنوا، خسر من خسر، وفاز من فاز، لا يهمني ذلك؛ حتى رأيها في هذا الأمر لم يعد يهمني، هي التي رجتني أن أتواضع قليلاً، ليسلم رأسانا، وتهنأ حياتنا، ويعيش أولادنا الذين سيأتون بسلام. هي التي كان عليها أن تكون أكثر ثقة، بعد أن عبرتُ إليها رغم ضيق الكوة التي منعت الكثيرين. هل كانت رغبتها ولهفتي وراء ذلك؟! لم يصدقوا أنني فعلت دون أن أنحني، لم يقتنعوا حتى بعد أن شهد شاهد من أهلها! لا يهم إن تراجع عن ذلك تحت تأثير الغيرة وضغوط أخرى، ولا يهم أنها تضغط أيضاً؛ خافت علي، كان عليها أن تكون أكثر قناعة بقدرتي على عدم التراجع. لا يهمني رأيها، لم يعد يهمني؛ ربما زادني قوة وإرادة، بعدما نقلت إليّ أصداء ذلك السؤال؛ هل كان سؤالها أيضاً؟! وسؤاله؟! هو الذي لم يعد يعنيني رأيه، وقد قال

مراراً: كن واقعياً! الجميع يحفظون رؤوسهم، لن تظل شاذاً، لن تخسر شيئاً، ستعيد رفعه بعد العبور!

قد يكون ذلك منه شفقة، أو رغبة في أن أفعل مثله، رغم أنه لم يسلم، ولم يعترف بخيبته!

كنت واقعياً مع ذاتي، وتواضعت كثيراً؛ أسير في الطريق ذاتها، والزمن ذاته، والاتجاه عينه، لكن بشروطي.. لم تكن شروطاً، إنها حدود إنسانية دنيا، وسلوك بسيط سلس، لكنه ليس سهلاً؛ قليلون من يمارسونه برضا من دون غاية: تسلّم على الجميع، تشاركهم أفراحهم وأحزانهم بلا تصنّع أو استغلال، تغتبط لأية خطوة إلى الأمام ممن يستحق، وتكاد تكتئب لدى كل عبور مأجور للعابر والمَعبر، ولا تقنط من متابعة الحياة دون مساومة..

*

الآن.. لستُ متأكداً أن الأمر يمكن أن يسير على ما يرام. لا أعرف إذا ما كان الباب اتسع؛ لم أنظر إلى أعلى، لأنني لن أتوقف، ولن تثنيني رائحة الدماء، ولا قطراته المتخثرة على العتبة، حتى تلك الطازجة المعلقة، ولن توقفني الصدمات الصلدة تتصادى تبعاتها

في أزمنة متعددة وظروف مختلفة، بعضها شبيه بما يسود الآن.

الجميع ينظرون، ينتظرون، يترقبون.. وأنا أنقل قدمي فوق العتبة التي تتعارض لتصبح مسافة قصوى، قد أحتاج إلى وقت أكبر وعمر آخر أو أعمار لعبورها، وتزدحم بها الأجساد والأقدام والزفرات واللهاث.. وتضيق أحياناً أخرى حتى لتصبح كشعرة، ليس لعبورها صدى أو جدوى..

*

قدمي فوق العتبة، لن أغيّر وجهتي، لن أفكر في جدواها ولا في مشروعيتها. لن أنظر في وجوههم؛ أين صاروا، لا أراهم، ولن أستمع إلى هلوساتهم؛ أهذي؟! ربما، فقدت نصف عقلي؟! قد أفقد النصف الباقي، تاريخي ومستقبلي.. إن ترددت أو أحجمت. راح عمري جله، وليس ما تبقى وافراً لأضيعه في ترّهات تزداد، ومرغّبات تتكاثف، وضجيج منفلت، وخواء.

قدمي فوق العتبة، وعيناي تطوفان في فضاءات لا تحد، الأفق صار أبعد، وغمام ينسرح قريباً، ونمنمات خضر في الأمداء الفسيحة..

.. وعيناه، ذاك الذي يرفع رأسه من تحت التراب، لم يحنه إلا للأرض، تنظر بحنان ودفء وثقة وأمان..

***

قمر!

أستطيع الآن أن أمارس حريتي؛ ها أنا وحيد، كم افتقدت مثل هذه الفرصة التي تهيأت بمساعدة الظروف؟! فزوجتي والأولاد غائبون، وغداً يوم عطلة، لست مضطراً للاستيقاظ قبل الفجر، ويمكن أن يطول ذلك أياماً. منذ زمن بعيد لم أحسّ بمثل هذا الإحساس. المساء في أوّله، وأريحية الصيف تضفي رحابة مضاعفة على أحياز البيت المريح.. يمكنني أن أجلس في أية شرفة، وأية غرفة، أو أنزل إلى الحديقة، أو أصعد إلى السطح المطلّ..

باستطاعتي أن أفكر من دون مقاطعات، وأن أحلم بلا منغصات، وآكل ما أشتهي، وأشرب ما أريد، وأنام حين أشعر أن بي حاجة للنوم. ويمكن أن لا أتناول شيئاً، وقد لا أنام..

أنا الآن حرّ بامتياز. لا أدري إلى متى قد تستمر حريتي هذه، وعلي أن أعيشها حتى آخر نَفَس.

*

"لم تكن أجملهن، لم تكن جميلة أصلاً، وكنت وسيماً، وما أزال، رغم عدم اعتراف زوجتي، وكنت

مرغوباً من الكثيرات.. لكنها أشفقتْ على إلحاحي، تلك التي أقسمتُ بيني وبين نفسي على أن أجابه العالم من أجلها؛ فليست مثل تلك العلاقة مفهومة من أحد. وإذا كانت العلاقات المدروسة بعقل، والمشرعة بقوة المجتمع، ومنطق التكامل صحة وتعليماً ومستوى، تتعرض للنكسات، وربما تقع في انهدامات حادة يصعب إنقاذها، فكيف إذا ما كان أحد الطرفين من ذوي الاحتياجات الخاصة؟!".

مدّ يده، رفع الأخرى، حرّك قدميه، وقف بكامل قوامه، تمطى ليتأكد من أنه ليس من ذوي الاحتياجات الخاصة، سعد، أو استثير، خرج إلى الشرفة، تناوست أضواء القرية البعيدة، وتواترت أصوات المنبهات والأغاني.. ومن خلف الجبل الرابض بتجهم يضاعف هذا المساء، أطل القمر بملء إشراقه، يجاهد كي يملأ المشهد الذي اكتأب لغياب الشمس، فيقنع الكائنات بجدواه رغم بعده وأوقاته المضيّعة: "أليس هذا الكوكب الشمعي من أصحاب الاحتياجات الخاصة؟!".

حاول التفكير في تلك التسمية التي تحتشد بالعكاكيز، والنظارات السوداء، والسمّاعات، والزحّافات،

والأيـدي الممـدودة، والأصـوات المشـروخة والتأتـآت والإشـارات.. حـاول التصـويت ليتأكـد مـن قدرتـه علـى الكـلام؛ "فمن منّا نحن مكتملي الصحة أعضاء وأجهزة ومسؤوليات.. ليست لديه احتياجات خاصة؟!".

*

"أفكر في ترك الوظيفة بلا رجعة، فكرت في ذلك منذ زمن، صعقت زوجتي واستفزتِ الأولاد حين طرحت الفكـرة؛ أسـتطيع تفهّـم مشـاعرهم، ولكـنهم لا يقـدرون معاناتي".

– ألم تكن تعاني قبل الآن؟! تنقلتَ كثيراً، ووصلت أخيراً إلى موقع يغار منك الكثيرون بسببه، ويحسدوننا؛ أنـت تسـتحق، كنـت مرؤوسـاً وصـرت فـي مركـز المسؤولية!

"أشرح لهم، لا أستطيع أن أقول كل شيء احتراماً للموقع والمهمة، وللشريحة التي أمثل. أكاد لا أصدق ما يحدث، ولا أستطيع التحمّل أكثر، وقد يفعلون بي ما أود فعلـه مـن نفسـي، وأفكـر فـي مـن سـاهم فـي وصـولي: أصـواتهم، ورغبـاتهم، وأحلامهـم.. وهـل الهـروب هـو الحل؟!

ليس التعب هو السبب، ولا هو العمل، ولا السفر، رغم أنه لم يعد يحمل تلك الجاذبية..". (هكذا تفقد الأشياء معناها؛ كان السفر أو مجرد ركوب الحافلة متعة ورغبة وحلماً، وتجديداً تحتاج إليه حياتك الضيقة، عملك القريب من البيت، الدائرة الصغرى من الناس الذين تلتقيهم، القضايا التفصيلية التي كانت ترهقك، والتفاعل المباشر مع الناس بمختلف حساسياتهم!!)

"تغيرت التفاصيل ولم تتغير النتيجة؛ أما الجدوى فما تزال قيد التجربة."

(لكن في تركك العمل إعلان فشل، ستكون أصداؤه أوسع!..)

"أعرف، وهذا ما يجعلني متردداً في اتخاذ القرار !!".

(لم يعد في الحركة بركة.. السفر الطويل صار مألوفاً، المشاهد والتضاريس المتناوبة بين الظلام العميم والنهار المتفاوت، والظروف الجوية المتناقضة حتى في الرحلة الواحدة.. السائقون والمرافقون وقاطعو التذاكر في مختلف المحطات، عمال التنظيفات في وردياتهم، ممارسو الرياضة الصباحية والمشاوير المسائية لا

يتبدلون كثيراً؛ حتى أصوات النداء على حافلات النقل الداخلي هي عينها.. وحين تصل إلى مقر عملك، تفاجأ بالتضّيق الذي يتفاقم في التفكير والرؤية والأفق!).

*

(لم يعد الأفق ضيقاً.. مئات القنوات تحمل إليك العالم بمختلف أطيافه وحالاته ولغاته.. يمكنك أن تختار ما تشاء بجهازك الصغير وشاشتك الكبيرة ووحدتك الفضفاضة!

لن تستمع إلى الأخبار، تعرفها، متشابهة؛ لست مضطراً للترجمة، الصور ذاتها، الأشخاص لا يختلفون كثيراً: ضحكاتهم الموتورة، ابتساماتهم الموبوءة، أناقتهم المبالغ فيها؛ حتى خطوط ربطات أعناقهم تميل بالاتجاه عينه! لا تحتاج إلى لغات العالم، فالأحمر ذاته، حاراً ومتخثراً، وغبار الانفجارات بالقتامة نفسها، الصرخات والولولات والاستغاثات والشكوى والخيبات.. رغم اختلاف السحنات!

لن تحتاج إلى لغة: الرقصات والأضواء والمشاهد، الكرات والسيارات والسباقات المحمومة..

لا.. لست في حاجة إلى رفيق أو نديم، ليس لديك مساهرون، وليس عليك سوى أن تغلق الأبواب وتسدل الستائر، وتغيّب البدر اليتيم. ولست تحتاج إلى ثيابك أيضاً، بعضها على الأقل؛ فأنت وحيد، والأعضاء في الشاشة بالغة النصاعة والتفتح، والحركات فياضة بالإثارة، والأفعال شديدة الغرابة، وكذلك حالك؛ لست عازباً ولا محروماً ولا عاجزاً.. ما الذي يجعلك تستمتع، أو تتابع مسترقاً اللحظات، باحثاً عن أكثر الحركات نشازاً؟!

هـا أنـت وحيـد، يمكنـك أن تبحـث بهـدوء، لِـمَ العجلة؟! الليل في منتصف حشرجاته، والأقمار عديدة.. لماذا هذا التنقل المحموم بين النجوم؟! لماذا لا تتابع المشهد إلى نهايته، والرعشات إلى انطفائها؟! لماذا لا تستمتع بمختلف الأوضاع والأعمار والأشكال والألوان؟! وماذا تريد أكثر؟!).

يضيق النَّفَس، وتغيب الأقمار دفعة واحدة!

*

(تحدق في النجوم أكثر، أم هي التي تبالغ في التحديق بعد احتجاب القمر؛ أين القمر الذي كان؟!

تحاول الهروب منها، وقد هربت إليها تواً، تحدق في القرص المتشاحب، تفكر في مسوغ ذلك ومعناه. السطح مطل، الفضاء واسع، فلماذا يحدث هذا؟! ولماذا هذا المسار الحدي الذي يجعل الشمس تتفق والأرضَ على الوحيد القمر، وفي هذه الليلة بالذات؟! وهل ساهمتَ في جريرة احتجابه؟! لكن السؤال يتشعب: ولماذا القمر وحيد؟! وهل كان للأرض قمران أم أقمار؟! وهل فاز قمرنا هذا بالبقاء لأنه مطيع باهت تابع؟! ولماذا القمر؟!وما فائدته وجدواه؟! هل هو تلوين في الحركة المألوفة التي لم تعد أليفة؛ شروق الشمس وغيابها، تعاقب الفصول حتى إن تداخلت، تنامي القمر وتآكله!

ما الذي يعنيه كل ذلك؟! كثيراً ما فكرت: فيمَ هذا ولِمَ وإلامَ!! ولا يهم منذ متى!

طالما فكرت في ذلك، وطالما لامك الآخرون لأنك لا تسلّم!).

"كنت أقول: لن أستسلم لأي أمر لا أفهمه، وماذا يهمّ الخلاص ما بعد الحياة؟! وأي معنى لحياة أخرى في ظروف مغايرة لنفس أخرى؟!

كنت أقول أشياء، وأخفي أكثر، لو بحت لما تركني وسطاء الماوراء، ووكلاء القدرة التي لم تعط أسرارها لأحد، ولا غاياتها لعاقل، ولا أحكامها لكائن؛ ولا أرى معنى لحرب بلا طائل، وتضحية بلا جدوى!!"

(هل يحتاج إليك من يمكن أن يكون فوق كل ذلك لتدافع عن مشروعه، ولتسوغ الكثير مما ينسب إليه، ولا يُقنع؟!

كنت تجرؤ على التساؤل وحيداً. تحاول الآن فلا تستطيع!

تحس أن هذا الظلام الطارئ يشتد، ولا تبدو انفراجات عن القمر الذي يغرق في الشحوب، ولا تستطيع رد الظلامة عنه؛ هناك من يحاول، يحتج، يضرب على القدور النحاسية، كي يلقي الحوت القمرَ الذي ابتلعه من جوفه! يناشد ويخشع ويصلي. لكنك لا تفعل مثل ذلك، لأنك مقتنع أن لا فائدة؛ فالقوانين مختلفة، والعناصر مغايرة، والأحكام لا رادّ لقضائها؛ فماذا عليك أن تفعل؟! والأضواء البعيدة تتناقص، والصمت الرهيب يعمّ!

وإذا كان الأمر كذلك فكيف ستكون النهاية، وما المآل بعدها أو قبلها؟! وما الذي ينتظرك؟! تُرى لو فكرت مثلهم، آمنت بما آمنوا، لو سلّمت، أما كان احتمال أن تَسْلمَ كبيراً؟! وربما تنال أجرك مرتين!

تحسّ وشوشة كتلك التي تملأ الفضاء، وتساءلت عنها تهيمن عبر الشاشة بعد انقطاع الإرسال الأرضي أو انتهائه. تشعر كأن دبيباً شائكاً في أطرافك، يمتد إلى جسدك، رعشات تبدأ فعلها؛ تهمّ بالنزول عن السطح، تتعثر قدماك، تحاول أن تصوّت، تخرج تمتمات خافتة تكاد لا تفهمها، ولا تعرف من أي الفتحات خرجت أو المسام!

شيء ما ينهضك، تسارع إلى الفراش كالمحموم، لن يسمعك أحد إذا ما صرخت، كما فعل القمر.. ربما: دثروني، دثروني!!)

***

في الضفة الأخرى

أصواتهم تعلو، خلجات مضطربة تراود جسدي عن تكوره. ما يزالون في الضفة الأخرى. الظلام يوشك أن يسود، لا أستطيع تمييز هياكلهم، حتى وهم يقتربون أكثر.

ليس الأمر سهلاً. المسافة بين القرية والنهر ليست قصيرة. أراض مستصلحة بشقاء العمر وشقّ الأنفس. وشجيرات واعدة تتناهض بانتظام. والخطا تتعثر في

الدروب الضيقة بين الحفافي الحجرية. التربة المروية تتشبث بالأقدام المتسارعة صوب النهر الذي علا ضجيجه بعد أيام من الهطل الجاد.

لم يخطر في بالي أنني سأحاصر في هذه الضفة. ليس من عادة النهر أن يفيض؛ مضت أزمنة الفيضان، الشح تتزايد ملامحه في البقاع كلها،

والصحو المرّ يتواصل أياماً كانونية لم تعد تخيف، ولم يعد مجنوناً من يخرج إلى البرية فيها.

لكن من يترك القرية اليوم ليس عاقلاً!

*

خرجتَ، وعبرتَ النهر الذي بدأت مياهه تسيل، لتزيل بعض أصداء الإشفاق والرثاء عن سريره المهجور!

ليس سريرك أقل هجراً. ألهذا كنت تحاذر أن تقارب النهر كيلا يذكّرك به؟! حتى وأنت تتجاوزه من فوق المعبر الضيق، كانت بقايا السوائل الراكدة تثير اشمئزازك، وكان يخطر في بالك ما لا تود من تشابيه

تلـح، رغـم اللـون القـاتم: النهـر يحـيض، وحيضـه قـاتم! الحيض عنوان خصوبة متوفزة، واستعداد كوني لإعلان حياة. ربما هو كذلك عند الكثيرات، كنت تقرأ، وتظن، وتنتظر. طال الانتظار حتى صار عنواناً آخر مختلفاً. النهـر يحـيض، النهـر لـيس أنثـى مـدّعاة، ولا حيضـه مرتهناً لأنثى مخصبة أو مقفرة، فللرجال حيضهم أيضاً!

تقول ذلك الآن، وأنـت تسـمعهم يصـوّتون، ويتنـادون من بعيد. وكنت تقول ذلك، وأنت بينهم، وهم يقولون ما لا يفعلون، ولا يقتنعون بـه؛ يصـفقون من دون إعجاب، ويرقصون بلا فرح، ويهتفون من غير ولاء. تستطيع أن تشـبّه مـداخلاتهم الإصـلاحية، ومطـوّلاتهم المدحيـة، وشعاراتهم، وتأكيداتهم، وخطواتهم الحثيثة، وحماستهم.. بسوائل النهر القاتمة التي تعجز عن الجريان، ويأنفها الطير، وينشط حولها الذباب الأزرق.

بـتّ تعرفهم؛ لـدغت مـرات، وأنـت تحـاول ألا تظلُم، وألا تعمّم، وأن تتأكد. لكن.. هل فاتك ما يقال عن عقلِ من يجرّب المجرّب. أليس وجودك هنا، وفي هذا الوقت تأكيداً لذلك؟! ولكن بطريقة أخرى، قد يطرحها البعض؛ سوّقها قبل ذلك، واتهمك بعدم السوية أو اللاتوازن. ترى

ما الذي يضيرك إن نجح أبو رمّاح؟! لم تكن مرشحاً، حاولوا، قالوا: مثقف، ومعروف..

قلت: المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين!

قالوا: تغيرت الحال، لم يعد في الأمر إلزام!

قلت: ليست المشكلة في الإلزام، بل في الالتزام!

قالوا: لكن البلد في حاجة لأمثالك.

قلت: لم تخلُ البلد ممن هم أجدر مني، هناك مثقفون ومتعلمون كثيرون ومعروفون.. من قِبَلِكم على الأقل!

لم تحدد لهم اسماً، رغم إصرار بعضهم كيلا يفوز أبو رمّاح. أكثريتهم أكدت أنه لن يربح؛ بل سيخسر خسراناً مبيناً؛ فليس من المقبول تربّعه على رقبة المنطقة من جديد، بعد زمن خلناه ولّى بلا رجعة تحت وهج الشعارات ووقع الخطابات ودقة النظريات.. أملاكه وزعت على من يستحق ومن لا يستحق، وفظائع أفعاله هضمها الكبار، وضاعت مفرداتها ومعانيها عن لواقط الصغار.. وليس من المعقول تشريع سلوكه وأخلاقياته وسطوته؛ هو الذي يلوّن ويتلوّن، يتسلل ويتمكّن، ويمنح

بحسبان! هو الذي لم يشبع، ولم يرحم، ولا يرعوي. فكيف حصل ما حصل، وفاز بامتياز؟!

وقفتَ في الضفة الأخرى، أمامك الوعورة والحراج والغموض.. وخلفك النهر الذي بدأ يضطرب مترجماً بعض أفكارك. عدت إليه. كانت تيارات تتدفق من علٍ. تحاول أن تجرف البقايا اللزجة، بدأت تنشرح، تقطيبات ملامحك تتفكك؛ هل أنت في واحد من قوافل أحلامك التي مللت إيقاعها، وملت أطيافك؟! عكر المياه التي تتسارع باطّراد أبهى من القتامة المزمنة في المجرى الداكن.

تمنيت في لحظات مجنونة أن تنهمر التيّارات الهادرة من قمة الجبل والجروف الصخرية، شلالات تهبط بقوة فوق البيوت المستحدثة التي تتسلق السفح عاماً بعد عام، وتنحدر في الطرقات المسودّة، لا تبقي ولا تذر؛ فليس ما في البلدة أقل مما في هذا المسيل من أدران، ولا ما في النفوس من مفرزات أقل تلويثاً وتشويهاً مما تجتاحه مياه الفيض!

تتنقل بناظريك بين الماء المتسارع والبلدة التي تكاد تضيع وراء خيوط المطر المتغازر، تفكر، وتقلق،

وتتمنى.. الماء يملأ سرير النهر، ويتوزع فوق الجوار. تراجعت قليلاً.. كثيراً إلى الكهف القريب، تعرفه، زرته مرات؛ كلما أحسست بخيبة، جئت تتجرع المرارة وحيداً. قد تتأخر، لا مشكلة في ذلك، لا يسأل عنك الكثيرون، لم يعد من يسأل عنك، حتى من كانت تنتظرك في الدار، ملّتك، وذهبت مع حيضها الذي لا يتأخر إلى أرض أخرى، رجل آخر؛ لم تتزعج، ولم ترفض. انفضّ ما كان من اجتماع بينكما بلا كبير أسف، رغم أنها تشيع أنك السبب. فيما ترجّح أنت أنها عاقر. الأطباء بعد علاجات وصور وتحاليل ومراجعات مديدة يقولون: ما من سبب في أي منكما. لكنهم يحيضون أيضاً!

*

الحال في الوظيفة لم تكن أهون، كل ما فعلتُه أنني بيّنت خطأ الإجراءات المراد اتباعها للتعاقد مع تلك الشركة. أعلم أنها قطاع عام، ولكن ذلك لا يسوّغ الامتثال لشروطها، وإذا ما كان نصف عمالها في سن متأخرة، فليس من المنطقي أن تتكفل دائرتنا بإعانتهم؛ لا تستطيع، لا تتحمل. والقوانين لا تسمح بخلافه.

لم يرقْ ذلك للمسؤولين، واستكملت الإجراءات بعد إقصائي.

– هل هذا مآلي بشهادتي وخبرتي وعمري.. وهذا ما أستحق؟!

"لا يهم.. الأهم أن لا تؤذي، إذا كنت لا تنفع!"

– وكيف أؤذي أو أنفع إذا ما كنت "تحت التصرف"؟!

صرت أهرب إلى هذا الكهف أيام الصحو المراوغ عابراً المجرى، محاولاً ألا أنظر إلى قاعه، كيلا أتكبد المزيد من الآلام. وأفكر: مجرى السيل الخاوي، مجرى العمل، مجاري الحياة..

الآن.. فاض المسيل، عجزتُ عن العودة إلى البلدة التي ترقص لفوز أبي رمّاح. سيتسيّدها أعواماً، سيكون واجهتها بأصواتنا، بعدما ساسها بأمواله وعلاقاته. إنهم لا بدّ يقولون: هذا فرح السماء بفوزه، ولا غرابة في أن يكون له كرامات كان يخفيها تواضعاً، وستظهر تباعاً!

"لماذا تحزن إذاً؟! لم يتغير أمر، كان.. وما يزال!"

- أحزن لأننا شرّعنا له ذلك، ربما كان لديه في الماضي بعض الخجل أو القلق.. أما الآن، فالأمر أسوأ بما لا يقاس، وسيكون من الصعب الوقوف في وجهه، ناهيك عن التخلص منه. أحياناً أقول: من كانوا، مثلنا لا يستحقون أكثر من ذلك. وأعود لأخفف: ليس الجميع. هناك من هو مظلوم.. مثلي. ها أنا وحيد بارد مقفر، وبيني وبين البقاء أوقات لا تطول، إذا ما ضلّوا عن مكاني، وضللت عن إرشادهم. لم نكن يوماً في طريق واحدة، ولم تكن خطواتنا تؤدي إلى لقاء. قد نتقاطع، لنفترق بسرعة. الآن.. هم يبحثون عني، غريب، لماذا؟! منذ متى؟! عودة الوعي، صحوة الضمير، أم أنه إجراء إنساني لرد التهمة، أو سد الذرائع؟!

هم ليسوا صادقين في البحث عني، يصوّتون، يتنادون، ليقنعوا أنفسهم بأنهم قاموا بما يمكنهم، وسرعان ما يعودون من حيث أتوا، وأبقى وحيداً أمام مصير غامض! وهل كنت في كل ما مضى إلا في مواجهة المجهول؟! أليس المجهول بكل ما يمكن أن

يحمله أهون من المعلوم الذي واجهت، وينتظرني إذا ما عدت؟!

لكن النهاية هنا قارسة.. مزقاً بين أنياب وحشية، أو تجمداً من البرد، أو هلعاً من الظلمة!

هم سيعودون، سرعان ما يعودون، وإذا ما أردت البقاء حقاً عليّ أن أقوم، ألوّح لهم، أنادي.. قد لا يسمعون، ولا يرون، وأعود إلى مواجهة ما هو أعظم!

هل أنهض لأقوم بما يلزم، كي يعلموا بوجودي؟! ويعملوا على إنقاذي بأي وسيلة؟!

الآن.. لا أستطيع التفكير أكثر، لا أقدر على الصبر أكثر، لا أعرف معنى أن أكون بينهم من جديد، ويكونون المخلّصين، وأنا الضحية التي ستعيش ما تبقى ممتنة لهم.. هم الذين ظلوا طوال ما مضى، غير آبهين بكل النصال التي انغرست في مسامي؛ بل شاركوا بالتصويب والتزويد، والتغافل عن الأنات!!

الآن علي أن أقرر، رغم أن قراري ليس معناه الخلاص، فقد يتجاهلون رؤيتي محتمين بالظلام الذي يزداد، ويتغافلون من جديد عن صراخي. ولكن

علــي ألا أهــرب أكثــر، علــي ألا أقــرر انتحــاري المجـاني. لـن يفيـد هـذا شـيئاً، وسـيكون تأكيـداً لمـا يقولـون مـن أن مسـاً أثّـر بـي، ففرتْ زوجتـي منـي، ونُقّلـتُ فـي الوظيفـة، حتـى اسـتقرت بـي الحـال بـلا عمل، ووصلت في أفكاري إلى لا جدوى، وهربتُ في ليلة ماطرة إلى النهر لألقى حتفي..

عليّ أن أقرر المواجهة من جديد.

الهطـل فـي ازديـاد، والعتمـة تسـود، والملامـح تتلاشـى، والأصـوات المتناوبـة فـي الضـفة الأخـرى تنــوس. هــل فــات الأوان؟! علــيّ أن أجــرّب، أن أصـرخ، أشـعل شـيئاً.. أن أبحـث عـن مكـان للعبـور. عليّ أن أقوم بشيء ما، لأتأكد أنني مازلت في قيد الحياة الذي يضيق أكثر فأكثر.

***

الدليل

أين سيذهب مني بعد الآن؟! لقد رأيته، وبأم عيني، هو بذاته؛ أميّزه حتى لو تخفّى في ألف لبوس.. أعرفه، هو بعينه، رأسه المقمط الذي طأطأه من دون أن يراني؛ هل كان يتوقع أن يكون هناك من يترصده؟! ميلان كتفه الأيسر البارز رغم انحناءته؛ يقولون إنه إرث العائلة؛ فقد امتهن جده البعيد حمل الدلاء الطافحة والسلال الملأى إلى الأسياد، أو الطواف بالأوعية التي تمتلئ رويداً من بيت إلى بيت!

هو بذاته؛ تقوّس قدميه الذي لا يساعده كثيراً في التحرك الملتبس، كما لا يعينه في الوقوف الرسمي، أو المسير الاستعراضي الذي يكثر من مناسباته!

كم أنا محظوظ! الفرصة جاءتني من حيث لم أحتسب؛ بل أنا موهوب؛ خمّنت ذلك، وتحدثت به. كنت على ثقة من أنه يقبل أن يقوم بمثل هذا الأمر، وأفظع

منه، رغم كل ما يبديه من دماثة في التعامل الإنساني، وحرص على الأخلاق والسلوك الرصين، وما يفتعله من غضب وقسوة في وجه أي خلل أو استهتار..

حين كنت أتحدث في هذا الموضوع، وأعرب عن شكوكي، كانوا ينهرونني: المستفيدون والمتملقون والغافلون.. ويطلبون الدليل. كنت أقدم تحليلات للظروف والمواقف، الحالات والتاريخ والمناسبات، والعلاقات التي يقيمها سيادته داخل الوظيفة، وتتمدد خارجها بحذر وخبرة، ويمكن بخبرة أيضاً تبيّن مراميها من خلال المقربين منه، والأشخاص الذين يزورونه. في المكتب يقولون: إنهم متعاملون، طبيعة عمله وعملنا، زبن لولاهم لانهارت المؤسسة؛ بل ما كان من مسوغ لقيامها، ولما كان لها كل تلك القيمة لدى المسؤولين الكبار!

في الفترة الأخيرة، أحجمت عن الحديث في ذلك، توقفت عن القول، صاروا يستفزونني: هل اقتنعتَ أخيراً؟! أم عقلت، وسمّيت بالرحمن؟! عليك أن تعترف بجريرتك، كنت تظلم الرجل، ولن يحاسبك، كما لم يفعل قبل الآن من أجل هذا السلوك؛ العقوبات التي تناولتك

كانت لإهمالك في وظيفتك، تأخّرك، ولا مبالاتك، ثرثراتك وتأثيرات سلوكك على سير العمل وأداء الآخرين. وكنت تستحق أكثر، لكنه اكتفى بالقليل، ونبّهك كثيراً، واحترم سنّك، وقدّر ظروفك العائلية؛ حيث تركتك الزوجة مصطحبة ولديها، وغادرت إلى بلدها.. ولم تستطع أن تلحق بها، ولم تستقر بك الحال هنا!

ظروفي وسلوكي وسني.. كلها حجج واهية، أقنعة يجيد استخدامها لادعاء الشرف والأخلاق، وإبداء حسن المعاملة، يستطيع إقناعكم بها، يغافلكم عبرها وعبر سواها.. فتسكتون، وتشكرون، ليزيدنّكم! أما أنا فلست ممن تنطلي عليهم مثل هذه التصرفات، ولا يستطيع النيل مني بواسطتها بعد ما عجز عن ذلك بالقانون. يعامل الآخرين بالطريقة ذاتها، من كان منهم يستحق أو لا يستحق؛ انظروا كيف يتعامل مع سعدون. ستقولون إنني أكره سعدانكم هذا؛ لأنه ينافسني على المنصب والمسؤولية. دعوا شعوري جانباً، وقارنوا بينه وبين حمدان. أقرأ أحاسيسكم الآن، وما تودون قوله: تغار من حمدان لأنه أكثر وسامة وشباباً وجاذبية، وتتقرب منه الموظفات!

سأترك المقارنة، وأقول: تابعوا علاقات مثالكم الرفيع معهن، هل تظنون أنه بلا مشاعر، بلا نزوات، بلا رغبات، وكل تلك الملاطفة والصرامة والنشوة التي لا يستطيع إخفاءها، ناجمة عن متطلبات العمل؟!

لم أصدق، ولن أفعل.. وكيف أقتنع بعد الذي رأيت، وعاينت، وخبرت، وضبطته بالجرم المشهود؟!

تريدون الإثبات، ها هو الدليل أمامي. سأقدمه لكم حين تطلبون؛ بل قبل أن تفعلوا، سأستفزكم كي تسألوا. غداً منذ الصباح سأبدأ مع رشوان؛ إنه أكثر شراسة في الدفاع عنه، لأكسب الجولة بالضربة القاضية.

لا.. سأتحدث في البداية مع غزوان سألمّح له، وأتركه يلحق بي ليستفسر، لن يترك مثل هذه المناسبة تمر من دون أن يكون له قرص، سيفرح بذلك، هو يحب أخبار الفضائح، وينتشي بروائحها التي يشتمّها عن بعد! سأقرّبها من أنفه لكي يسكر، ويهيم بين المكاتب يوشوش، ويتشمم! سيضحكون منه في البداية، يسخرون، يطردونه، لأن وجوده عندهم فأل سيئ لدى سيادته، قد يستحق العقوبة، ويسبّبها لهم. لكنهم حين يشعرون أن في الأمر حقيقة، سيتقربون منه، يلاطفونه،

يغلقون الأبواب وهم يستمتعون بالنطاف التي يلقيها إليهم بالقطّارة. يهتاجون، ويستزيدون، ويقلقون، وهو البارع في تركهم على شفا حفرة من الجنون، بين مصدّق ومكذّب وملاحِق ومنتظِر دخاناً أبيض، قد يكون أسود في عيون الكثيرين؛ سيخرج عما قريب، لن يعود إشاعة، لقد كاد يصير واقعاً، ويبشرهم به؛ ولماذا لا يراهن عليه؟! سيكسب الرهان. لا.. لن أتركه يكسب، لا أحب أن يربح أحد سواي، قبلي، حتى لو كان بسببي، ولي مصلحة فيه.. النصر لي والأمر يخصّني. ولن أعطيه إلا خيوطاً لا تسمن ولا تؤكد، وإن كانت تلمّح وتشير وتستثير..

تلك قضيتي، وذاك أسلوبي، والرصيد في يميني، فكيف أفرط به، وألقيه إلى الآخرين؟! أنا من سيكون المرجع في ذلك، أنا من يستحق هذه الجائزة، وينتظرها.. وقد جاءت إلي بنفسها، بعدما يئست من ذلك، وتراجعت عن البحث عن دليل لخيبتي المتكررة، وضياع الوقت والجهد والطاقة في ما لا طائل من ورائه، كما أضيع الكثير من هذه الأثمان في فعل آخر، قد يسوّغه غياب زوجتي، ووحدتي المتفاقمة، بعدما

رفضت الكثيرات الارتباط بي، في الوظيفة وسواها.. ولا أهضم حججهم في ذلك، قد يجدن فيه وأمثاله ما يطلبن من جاه ومركز وحوافز، هذا صحيح، لكن إلى حين؛ وها قد حان الوقت الذي سأجعلهن يندمن على الساعة التي ترددن فيها، وترفعن عن التقرب مني، والتجاوب مع رغباتي التي لا تخفى، ومقارباتي، أو تحرشاتي.. كما يشيع زملائي الشامتون!

سأقول لها تلك القزمة الجميلة مرفوعة الرأس، وللأخرى ذات القامة الواثقة، ولصاحبة الخطو الأنيق، حتى لتلك الأرملة القنوع، والمطلقة التي شاركتُ في تعميم سمعتها..

سأقول لهن: هذا مثالكن، فتعطّرن بأصداء فضيحته الجديدة، وتفاخرن بسلوكه المهذب واحترامه لكنّ، وتحدّثن عن مشاعره الأبوية وتعامله الإنساني!

لا.. لن أفعل، سأترك لتلك الشبقة الثرثارة أن تقوم بهذا، سألقي لها بالطعم غداً. ومنذ الصباح..! سأتركها وغزوان يتنافسان في بث الأخبار، وإطلاق الحريق

الذي لا بأس في أن يستمر مكتوماً.. حتى تتكاثف أبخرته، ويتضاغط دخانه، فيكون الانفجار الأعظم!

*

ترى إلام سيستمر هذا الليل؟! لماذا لا يطلع النهار لأهرع إليه؟! لا بأس؛ سأتشاغل بالتفكير في ما يمكن أن يحدث في الصباح خلال لقائي به، وكيف سيكون رد فعله؛ سيتصاغر أمامي حتى يصبح كحشرة، ليس أكثر من حشرة.. سأتصور كيف سيزحف جوار حذائي، هل سأستخدمه في القضاء عليه؟! أفكر في الأمر.. حتى يمرّ ما تبقّى من هذا الهزيع الأخير المتطاول، وأصل إلى السبيل الأفضل لذلك اللقاء/الخلاص الأبدي.

(لكن.. لماذا لا تكون أذكى من ذلك؟! لماذا لا تستثمر هذا الأمر، كما لم يحدث من قبل؟! لماذا لا تذهب إليه وتحصّل منه ما تريد قبل أن تدمّره؟! ستدخل إليه وتخبره بشيء ما، تلمّح، وتدعه يحسّن لك موقعك، يعيد لك اعتبارك الذي اهتزّ، وكيانك الذي تهاوى..؟!

نعم نعم.. هذا أفضل الآن، هذه هي السياسة التي لا تجيدها، كما يتهمون؛ العبها الآن، والباقي أعظم!).

هل أطلب اعتذاره عما حصل لي فيما مضى؟! قد يتردد في القبول، ولن أزيدها عليه، الآن على الأقل.. سأرضى بقراراته التي تجسدني مهماً، وتعيدني إلى الواجهة. لن يخفى معنى مثل هذا الإجراء على المتابعين، ولن يفوت صداه المدوي آذان الحاقدين! لن أكتفي بذلك.. لكن بعد أن أستلم زمام المبادرة، سأجعلهم يندمون على كل كلمة قالوها بحقي، هجسوا بها، أو وسوست لهم نفوسهم، سيتأسفون على كل نظرة غير متزنة صوبوها إلي، أو ارتدّت من جهتي.. ها أنا قادم يا أدعياء الشرف والأخلاق والنظافة والنظام والشفافية والمؤسساتية؟؟ عائد إليكم، ولم يبق إلا أن أرتب أمر لقائي به، وإقناعه بأن طلقة الرحمة في يدي.. إن أراد العناد، أو المكابرة، لن يكون أمامي من سبيل آخر، وليس مهماً إن أُعذر من أَنذر!

ولكن..

علي أن أتدبر أمر ذلك اللقاء غداً، أو بعد غد، أو.. لا بأس في التريث والتفكير في سبيل الوصول إلى النتيجة التي أتوخاها، أتمناها، أنتظرها بفارغ الإنسانية والنبل، كما سيستدرجني سيادته، ويذكّرني بأشياء كثيرة

فعلها من أجلي، وفرص منحها لي، وتجاوزات تغاضى عنها، ومحاولات بذلها لإصلاحي، أو لإقناعي بالسير في ركبه الواثق. لن أتراجع عن فرصتي، لن أفرّط في هذه الهبة التي منحني إياها القدر، ولن أخطئها. صحيح أنني لم أكن أتوقع ذلك حين يمّمت شطر تلك الجهة لا ألوي؛ بل ألوي وأضمر شيئاً وأشياء لا تخصه وحده، بل من أجلي أنا، من أجل غايات أخرى، قد تلتقي مع نواياه القاتمة، كما يشي هذا اللقاء المعتم غير المنتظر. وليست المرة الأولى التي أمارس ذلك، ليس في هذه الحارة فحسب؛ بل في حارات أخرى.. هذه المرة، وفي هذه الحارة رأيته، هو بعينه وبمصيره الأسود الذي قاده إلي. وإذا ما حاول أن ينكر، سأحدد له الوقت والمكان بدقة، وإذا ما حاول تكذيبي، ماذا سأفعل؟! هل أحلف له؟! ما نفع ذلك؟! وقد حلفت كثيراً أمامه كذباً، وأمام سواه؟!

هل أُشهد آخرين؟! لم يكن أحد سواي، ومن يمكن أن يكون هناك في مثل ذلك الوقت؟!

هل أقول له إنني رأيته؟! ما الذي سيثبت ذلك؟! وإذا ما سئلت عن سبب تواجدي هناك، ماذا سأقول؟! وكيف سأسوغ له ذلك؟! ليس مكاناً لمشوار مسائي عادي، ولا طريقاً للعبور المألوف، ولا بيوت لزملائي أو أصدقائي؛ وهل بقي لي من أصدقاء؟!

(إنه مكان مشبوه، منعزل وملعون ومنبوذ، فماذا كنت تفعل؟! ستقع في مطب لم تفكر فيه، ستعترف أنت أيضاً بما كنت تنكره دائماً!).

لا بأس أن نقع معاً، عليّ وعلى أعدائي يا رب! لكن..

إن أَنكرَ قد يصدقونه، وكيف أُثبت لهم؟! هل كان علي أن أصرخ لأجمع علينا الناس؟! هل كان يمكن أن أصوره بهذا المحمول الذي يمنحني فرصاً ذهبية للابتزاز؟! لماذا لم أفعل؟! لكنه الظلام والتخفي! سينكر.. هل لي بشيء من عناصر وجهه، أيّ من ملامحه الحقيقية؟! وهذه الدلائل التي أتذكرها، ألا يمكن أن تنطبق على سواه؟! ألا يمكن أن يكون أحد ما يقلد مشيته، لباسه، حركاته ليبلوه؟! هل يمكن أن أتحقق من

هوية ذلك الكائن في مثل تلك العتمة؟! هل أنا واثق من أنه هو بذاته؟!

إنها علائم الفجر.. يا إلهي!

هل من الضروري أن يطلع الصباح؟!

لماذا لا أبقى في ركني المظلم أطول فترة ممكنة؟!

***

طنين

شيء ما يحزّ شيئاً ما، أزٌّ وطنين، لا أكاد أسمع، أو أعي، لا أستطيع أن أفكر كي أتوصل إلى قرار، رغم أن الوقت يتضاغط، والمنتهى قاب غفلة أو غلطة، إرادة أو قدر!

لا أعرف أين صرت، وماذا تبقى لديّ، وماذا كان بحوزتي حين انطلقت.. متى كان ذلك؟! لا أفهم شيئاً مما يقولون؛ حين أكون بين عدد كبير من الناس، أستطيع ملاحظة شفاههم تتحرك بهدوء أو توتر، وأشداقهم تنفتح بلا تأدّب. كان يمكنني التكهن ببعض ما يقولون، وصرير الكلمات التي تنطلق، وقتامتها.. حتى الضحكات المبتورة المجلجلة بلا كبير معنى. لكنني لا أسمع منها شيئاً.. منذ فترة لا أدري مداها، صوت ما، بل تداخل أصوات عديدة، يضعف ويقوى، يقف حاجزاً بيني وبين الناس حين أكون معهم، ويحول

دون الأفكار الضرورية حين أكون وحيداً، وتجافيني الأحلام في أثناء النوم.. الذي لم يعد قريراً.

*

(لا تستطيع الاختلاء بنفسك، حتى إن ابتعدت عن الكائنات؛ فالأصوات تلاحقك، تحاصرك، وما في البال يزداد غموضاً. حتى حين تعذُب الإيقاعات، وتسلس الأصداء، وتحسب أن الكابوس المقيم ينسحب، وتطوف أمواج من الدفء الماتع، فتحاول أن تعيد ترتيب الأفكار والعناصر المتداخلة في رأسك.. تعود أصداء الأزّ والحزّ، تتعالى، لكأنّ الأشياء تتمزّق، أو تتألّم..

تتوقف عن المحاولة، وأنت تتصور حيّزاً يتضايق، تملؤه كائنات متلاحمة بلا ملامح واضحة، تتحاور أو تتعارك بلغات لا تفهمها، وحركات لا واعية، ليس من الممكن إخراج أيّ منها بمفرده، ولا تستطيع المنافذ استيعابها؛ هل تريد الخروج حقاً، أم أنك من يودّ ذلك، يتوهّم، يحلم؟! وإذا ما خرجتْ، ما الذي سيحلّ بك؟! وأين ستمارس طقوسها؟! وكيف ستتدبّر أمورها؟! وهل ستكفّ عن مضايقتك؟! هل ستقتنع باستقلاليتها،

وتستغني عن خبرتك وأبوّتك؟! أم أنها ستحمّلك وِزر ما كان من حصار، وأبعاد ما ينتظرها من مصير؟!).

وأيّ مصير ينتظر كائنات غير منتظمة، بأعضاء غير منضبطة السلوك؟!

(لماذا تقوّمها بما لديك من معارف، بما لشكلك ومعايير الكائن الذي يشبهك؟! وهل هذا مسوَّغ منك، قبل أن تسوّغه لها، هي التي قد لا تنتمي إلى المعيار ذاته؟! ولماذا تحفزها على ذلك؟! فهل أنت مقتنع، مرتاح؟! ليس من الصواب والعقل أن تحمّلها تبعات هذا الكائن المعذب القلق..).

ومن الظلم أن تحمّلني تبعات ما كان لها، ما يمكن أن يكون..!

وهل كان وجودها بناء على رغبتي، قناعتي، رضاي؟! وهل قدّم لي خدمة أو فائدة؟!

لن أفعل! سأتنازل عن أتعاب علاقتي بها، أبوتي، رعايتي ذلك الضجيج الذي لم يغادرني..

(ولكن.. من قال إنها المسؤولة عن ذلك؟! وأين هي منك؟! أين تقيم، تعيش، تصوّت، تهذر؟!)

هل هي موجودة فعلاً ًً ً، أم أنني أهذي، وقد عاد الطنين حاداً غامضاً ملحاً..؟!

*

لم أفكّر قبل الآن في أهمية التناوب الزمني بين الليل والنهار؛ فلو كان في كل الدنيا نهار في وقت واحد، لتواقتت حوادث كثيرة، واهتزت أبراج عديدة، وانهار أكثر من جسر.. ولو كان ظلام مهيمن في توقيت واحد، لأسرى الكثيرون في زمن متواز، ولها آخرون ورقصوا، فاهتزت المنشآت المكتظة، وانهارت.. ربما، وربما مارس الكثيرون فعل الإخصاب في وقت واحد، وقد تتوافق حركة الرّهز المجنون مع الحركة اللاهثة لأرضنا المفلطحة، فيطاح بها في فضاء من الطنين.. لا ينتهي!

*

لماذا يزعجني هذا الطنين.. الآن؟! أم أن هذا الانزعاج متصل؛ قد يشفّ لانشغال بحاجة أو رغبة، ويتخفى في خلفية لا تني تسودّ بين فترة وأخرى، حال وحال.. أليس الزمن بإيقاعاته المتنوعة طنيناً واخزاً حتى إن انشغلنا عنه، توهمنا ذلك، بخطونا، ولهفتنا،

وضحكنا، ونشوتنا التي لا تلبث أن تغرب؟! لله ما أقسى ما تُخَلّف!

(الزمن بأبسط إيقاعاته؛ من أين أتت هذه الثانية؟! هل هي البرهة الفاصلة بين نبضة قلب وأخرى، بين رفة عين ورفة، بين زفير وشهيق محمومين، بين طعنة إخصاب وأخرى..؟!)

الزمن قارس بإيقاعاته أياً كانت: ثانية، يوماً، عاماً حتى إن أُحتفِل بمروره..! ألا يُنذر بمصير قادم لا محالة، أليس المصير صدى صارخاً مقيماً؟!

*

أفكر في الآخرين الذين يشبهونني، أشفق، وأحاول تفهّم ما يقومون به، حتى لو سخروا مني، ابتعدوا عني؛ فأنا لا أطيق نفسي، ومن المؤكد أن هذا يظهر علي انقباضاً واكتئاباً وقلقاً، وتصرفات لا منطقية ربما!

لكنهم يبالغون في إيذائي، يحاصرونني بتعليقاتهم وأسئلتهم وإهمالهم أحياناً.. لا أعرف بما أجيب، ولن أحرجهم بالأسئلة.

(لماذا لا تنتقم؟! تعاملهم بالمثل، على الأقل؟!).

يخطر لي أن أقوم بذلك، أن أدافع عن نفسي، وهذا مشروع وواجب.. ولكن: ماذا أقول؟! وكيف سأتصرف؟! وماذا ستكون ردود أفعالهم؟! هل يمكنني أن أتحمّل؟!

*

أتساءل أحياناً عن الذنب الذي ارتكبته لأتعرض لكل هذا؛ متى كانت جريمتي، هل شاركت أحداً، ومن تكون الضحية؟! مازلت مسالماً؛ الآخرون يرتكبون المعاصي والجرائر، وهم يقهقهون منتشين؛ يقتلون، يجوّعون، يشرّدون، يشوّهون، يحرمون الكائنات من أبسط حقوق العيش، ولا يأبهون. ويقوّمون أيضاً، يتهّمون بلا رحمة، ويحكمون بلا أدلة..!

لماذا أحاصر في وحدتي، في أفكاري وذاتي؟!

لماذا؟!

لم أقصر في عملي، ولم أألُ جهداً في سبيل تحسين الشروط والظروف حين أقدر، وبما أستطيع؛ واجهت، وأواجه، ولم أستسلم، حتى للأفكار التي تقتضي التسليم؛ ناهيك عن الذي يحاول فرض الأمر الواقع بالقوة، بالهيمنة المادية أو المعنوية!

(تُـرى.. هـل مـا يحصـل لـك اختـراع آخـر مـن إبداعات وسائل التعذيب والترهيب والتيئيس؟! هل هو تنفيذ لحكم لم تسمع به، أو رهان على نجاح التجربة، ولستَ سوى كائن تجارب؟!).

نجحوا، أساؤوا التقدير.. لن أستسلم، لن أزيد من حدة التشاؤم؛ ليجرّبوا ذلك مع غيري؛ قد ينجحون! ولكن مـا يجـري قـارس، ومـا أحـسّ بـه لا يتـرك لـي فرصـة للراحة، أو الهدوء.. سرعان ما يتجدد العذاب!

(ومن قال إن عليك أن ترتاح؟! وإن السعادة قاب وقت وقناعة؟!).

***

مثلثات

ما إن أطفأت النور، وأغمضت عينيّ، حتى بدأت الأشكال تفرّ، تتقاطع وتتنافر بلا انتظام؛ تلك لعبتي المفضلة التي أركن إليها أوقاتاً كثيرة، خاصة حين لا أستطيع القيام بأي عمل، وأعجز حتى عن التأمل الذي يرهقني، أو التفكير فيما آلت إليه حالي الآن، وإلامَ ستؤول!

أصداء غامضة لأصوات تتداخل، تتعالى باستفزاز، أو تتهامس بحذر، تقهقه أو تضحك بخفوت..

حوارات قليلة، مزاح يتغالظ، أو انسجام حميمي..

أستطيع الآن أن أهيم في غابة من الظلال الكثيفة التي تتقافز عبرها الهيئات والأشكال، تساعد على تجسيدها وتمايزها تلك الأصداء المتوالدة، التي يمكن أن تضاف إليها خطوط ونبرات وإيقاعات لا يعجز خيالي عن اصطيادها أو توهمها، ليصبح بالإمكان معايشة الحالة التي قد تستمر طويلاً: دوائر ومنحنيات وأضلاع تتوالد وتتقاطع بلا انتظام.. وجوه، وملامح، وعناصر وأعضاء.. كانت، تكون، يمكن أن تكون..!

*

أية مصادفة جعلت كرش أستاذ الرياضيات كالقطع الناقص، ووجهه ينقسم إلى مثلثين يلتقيان بالقاعدة: ينحدر الأول من مفرق الشعر، والآخر يصعد من أسفل الذقن. يساعد في تمثّل ذلك الأنف الدقيق، والعينان النائستان، والفم الذي يتوسع ضحكاً، صياحاً، كلاماً.. ليكمل رسم القاعدتين!

مثلثان يتباعدان ويلتحمان، مع تواتر الكلام في الخطوط والأشكال الهندسية المعقدة بحركات وانفعالات متنوعة، فتغدو الإثارة سبيلاً مهماً لعبور الوقت المتطاول المخصص للمادة الهامة في تلك المرحلة المصيرية، تشبيهاً وتمثيلاً ومقارنات تترك الكثير من الهمس المتوتر، والابتسام الخبيث، والمواربة والانكفاء..

لستَ هاوي رياضيات، ولم تبذل الكثير من الجهد للتفوّق فيها، رغم دقّة ملاحظاتك وحساسيتك المميزة، وقدرتك على التخيّل، تلك التي جعلتك تعيش معذّباً في واقع مرّ بعلاقاته وظروفه وثرثراته، وضيق الفرص،

وندرة الاحتمالات المطَمْئنة.. لولا إمكانية الاستزادة من جموح الخيال، وإطلاق حدوده في الجهات الست، وإغنائه بكائنات أخرى أكثر نضارة، وعناصر أكثر حضوراً وفاعلية!

*

المثلث هو الأصل والمرتجى، أقرب الأشكال وأبسط الهيئات: ترسّخَ، تكررَ، تلونَ، ترمز..

مثلث غائم غامض بعيد، رؤوس نتأت، أضلاع استقامت، شقت سبلها في التضاريس المتنوعة التي تشكلت عبر السنين المرّة؛ تلاقت، تهيأت، تتكرر بحسبان، لتترك أصداءها المتكاثفة في أودية المشاعر، وما بين الكثبان..

رؤوس ستة لمثلثين متقاطعين بانتظام، رؤوس نافرة مدببة على شكل نجمة تظهر خلسة، ويتراكم وخزها في الأعصاب والأعضاء الحساسة التي تحاول بثّ الحيوية لمواصلة الحياة، توزع لسعاتها في كل اتجاه مع دورانها المتسارع في مختلف الاتجاهات..

مثلثان متساويان تقاطعا بحرص، لتسهل الحركة الواخزة التي تتضاعف.

أحاول الهرب منها عبر مفازات تعرّفتها، توهّمتها، أجدّ في البحث عنها، لينقطع المشهد الذي حاولت استنهاضه متأملاً حالاً من الأمان والرضا.

(تتلامح أحاسيس شهية عبر تهيؤات ملحّة من شكل كالمثلث، كالمثلثين المتداخلين بلا انتظام، شكل مخبإ بعناية تشير إلى موقعه، محصن بما يقود إليه: النظر، الخطو وسمت التوق.. لكنك لا تستطيع آن الوصول التبصر في الشكل، ولا فائدة من البحث عن المضمون، ولا وقت لاستهلاكه بذلك، ولا تفكير؛ فالوعي مشغول، أو مرجأ، أو مبعد أمام الإحساس الضاغط؛ كان ضاغطاً، ما يزال، رغم انكفائه المفاجئ.. أحياناً، لكنه سرعان ما يعود بإلحاح ونشاط..).

مثلث، مثلثان، يضيع الشكل والمضمون، ويهيم الإحساس في أطيافه، وأصدائه التي تترامح في المخيلة، فتضفي على الوقت ألواناً زاهية، أو قاتمة، وتجعل من الحياة فصولاً خصيبة ومجدبة بلا انتظام، كشكله تماماً.

أحس بحال من النشوة، والرغبة بالجري أو التحليق، كأنما تناولت شراباً (مثلثاً)!

آه.. ليتني لبيت دعوته. سيسهر ليالي، خفت من تبعات ذلك، لكن الحال لن تختلف كثيراً كما يبدو..

قال صاحبي أكثر من مرة: (المثلث) يلزمه رجال، ليس شراب الهواة اللاهين، ولا يليقون به؛ إذا لم تكن من رجاله تنحَّ، واترك الأمر للفرسان.. أنا لا أستطيع أن أضيع وقتي وعمري في معاشرة المدعين المسجلين على القائمة زوراً وبهتاناً؛ فلا هم كرماء، ولا مشرقو النفس مضيئو الروح كالشاربين الفطريين الذين يبحثون عن الفرح والمتعة والسعادة، ويمنحونها أيضاً، يحاولون على الأقل، وقد يرضون بأضعف الإيمان.

أنا لا أستطيب صنع الآخرين، لا آمن جوانبهم، لي تجربة مع الناس، خبرة وخيبات، لا.. لا أخاف العمى أو الموت، فتلك حال خاصة طارئة، ولكنها مؤشر إلى ما يقترفه البعض من جرائر، وما ينحدرون إليه من سمات حتى في التعامل مع هذا الشراب.

صرت أقول بعد تلك الكارثة، وأنا أضرب كأساً بكأس: أستودعكم! بدل القول: كأسك، أو بصحتك!!

يضحك، وأكتئب! يتابع وعيناه تتشحان بالاحمرار، وكلماته تتعثر، وحروفه تتثاقل:

– أنا أثلّثه بيدي، لهذا دعوتك لتساهرني، إن كنت تستطيع. كل عام أقول: هذه آخر مرة أقوم فيها بهذا العمل. أغيّر رأيي، أذهب إلى بلاد العنب، أحضر الكثير منه، وأستعير (الكرْكي) المميزة بشكلها وندرتها وأجزائها المتنافرة، وخطوطها غير المنسجمة التي تذكر بتجربة (الأواني المستطرقة). الكثيرون يستخدمونها، وينتجون ويبيعون، لكنني لا أثق بهم، يخلطون، يغيّرون في نسب المواد، أو يستعجلون الزمن اللازم لـ(الدَّوْر)؛ أنا.. أنتج ما أستهلك، وما يحتاج إليه بعض الأصدقاء المعتقين؛ ما رأيك في أن تنضم إلينا؟! ليس إدماناً؛ صحيح أنني لا أفوّت يوماً بنهاره وليله، ولكنني لا أسكر، لا أغادر الوعي، رغم أنني أتمنى ذلك؛ صحيح أنني ملعون بسببه مرات: شارباً وبائعاً وناقلاً.. لكنني أَلعن به مرات.. أيضاً، رغم أن ذلك ليس من طبعي؛ بالله عليك، قل لي ما الذي يسرّ؟! أين العدل في العالم

كلـه؟! بـدءاً مـن مجلـس الأمـن والأمـم المتحـدة وحتـى بيتي! أسعى جاهداً لأستطيع النوم كالميت، لا أريد حتى أحلامـاً، ألا تكفـي كـوابيس النهـار؟! فـي الوظيفـة، فـي الحارة، في الاجتماع الوظيفي الحزبي النقابي العائلي.. حتى المناسبات التي يشع فيها نجم (المثلث)، ويحاول الجميـع التظـاهر بـالفرح، سـرعان مـا تتحـول إلـى مواجهات؛ إذ تظهر المشاعر الحقيقية، فتطغى الكآبة وتسود الخيبات.. ألم أقل لك إنه (المثلث)، ولـ(المثلث) رجال، فهل تنتسب؟!

أفكر في ذلك، وأتردد، ليس خوفاً من مثلثات من نـوع مختلـف، مـا تنـي تتهيأ عبـر العصـور، لـيس لهـا شكل، ولا هيئة، ولكنها تستقر في الخيال والذاكرة سبيلاً مهماً للأمان المرتجى والخلاص المنتظر، لست متأكداً أيها أكثر جدوى..

يطرح كل طرف ما لديه على أنه الحل والدواء للخـروج مـن الضـياع إلـى الهـدى، ومـن الكفـر إلـى الإيمـان. مـنهم مـن يؤشـر بيديـه، وآخـرون بأجسـادهم، ولكل دعوته وحججه وقناعاته التي لا يأتيها الباطل من

أيـة جهـة؛ هـل أحتـاج إليهـا الآن؟! هـل فـي أيّ مـن ثلاثياتها خلاصي؟! لم أستطع قبل ذلك، ولا سبيل إليه من جديد. جرّبت وما نجحت، لأن الأسئلة لا تهدأ، ولا سبيل للإجابات ولا قناعة، ولا مجال للتمايز بينها؛ لا يُقبل مثل ذلك، ولا مناص من المواجهة أو السكوت، لأن في الإفصاح خطراً يبزّ الأخطار الأخرى..

مثلثات من مواد متنوعة تعلق في الرقبة، أو تخبأ في الصدر والأركان، خلف الأشياء وتحتها.. تحتاج إلى اقتناع عصي، وتسليم يتناقض مع الملكة التي تخصنا نحن الكائنات الموسومة بالعقل.

قلت لصاحبي الآخر ذلك؛ كان صاحبي قبل أن يستغرق في تلك الطريق، فقال بأسى: أنا حزين من أجلك، لا ينقصك إلا هذا الجانب، فتأمن الآخرة بعد الدنيا.

قلت له بمرح مستفِزّ، مضاعفاً اكتئابه المستتر: ستحاسب على تعطيلك المَلكةَ الأهم!

وتابعت مخففاً الوطء: اطمئن يا صديقي، على الأقل لن نفترق هناك كما افترقنا هنا!

*

إنها ثالثة الأثافي، هل كان ينقصني ذلك؟! صبرت طويلاً، لم أعد أستطيع السكوت. تصابرت، سوّفت كثيراً، وأملت أكثر، لكن النتيجة لم تتفتح ألوانها، ولم تتلطف أصداؤها. لذلك كان لا بدّ من التصرف.

هل كان ذلك الحلّ الأمثل؟! هل كنت في وضع يمكّنني من أن أحسن الاختيار؟!

لم أعد أقدر على الحكم، ولست أدري إلى متى أستطيع الانكفاء وإغماض عينيّ، تاركاً للتهيؤات والألوان والخطوط أن تشكل وتتوهّم ما يمكن أن يرتسم ويتداخل من مثلثات..!

***

النوم سلطان

بينـي وبـين النـوم مسـافات، أحـاول عبثـاً عبورهـا، وأجهد كي لا تنتهي. منذ متى لم أستطع الرقاد، لم أنم بـلا وعـي أو إرادة كمـا أشـتهي، مسـترخياً، متحـرراً مـن قيـود وعثـرات، أغفـو وأفيـق بـلا قلـق، أو ضـغوط أو تساؤلات؟!

ليست من مشكلة قبل النوم، سوى في التفكير في ما يحدث في أثناء الرقاد، والمشاكل التي يمكن أن تلي الاستيقاظ؛ إلا إذا كنت وحيداً، ومن يضمن لي ذلك؟! أنا المتزوجَ المنتجَ أولاداً عديدين، الموظفَ في مواقع تعددت؛ لم أستقر في مكان؛ هل كان ذلك بسبب مشكلتي هذه، أو لأسباب أخرى قد تكون سببتها لي، أو ساهمت في استشرائها؛ حتى المهمة التي خمنت أنها الحل الوحيد فشلت؛ إذ صار بإمكاني أن أغفو، بعدما عيّنت بصعوبة حارساً ليلياً، بعيداً عن آذان الآخرين التي يمكن أن تستوطن أي جدار؛ فالمحرس بلا جدران. لكن ذلك خيب أملي؛ فللهواء آذان، ولليل أسماع، وللظلام عيون.. ولم تكن العقوبة التي تصاعدت إلى مستوى الطرد بسبب نومي خلال الحراسة، كما أُدّعي، هذا الذي لا يحدث إلا نادراً؛ بل عدم نومي تلك الليلة، وليالي أخرى غيرها، كان السبب، فرأيت ما رأيت!

لو كانت أحلاماً، تلك التي تشغلني آناء النوم، لهانت بتفاسيرها المطَمْئِنة أو المقلقة؛ لو أنها كوابيس، لتلاشت تفاصيلها باليقظة؛ وليست أماني مقموعة، أو رغبات مكبوتة.. أقول هذا ململماً أطراف الأحاديث التي

تتناول حالتي جهاراً وخفية، وأغتاظ من كلمات تتهمني باستدراج الحاضرين إلى شرك التصريح والتمثل والفعل أو التحريض على ذلك. ليت الأمر كذلك! لكنه ظلم آخر ينهال علي، ويجعلني أقاوم، فتزداد الحالة مرارة وقسوة.

*

هناك من لا ينام أيضاً. ذكر ذلك في معرض الحديث عن مشكلتك، فرحتَ وانشغلتَ، بحثتَ بلهفة واهتديتَ إليه؛ لا ينام حقاً، ولا يحس بالتعب أو الإرهاق.. لديه أمنية أن ينام ليستشعر حال الآخرين، كل الآخرين الذين ينعسون ويرقدون، ويفيقون باكراً، أو يتأخرون في نومهم حتى الضحى، مع كل ما يترتب على ذلك من تبرم من عدم كفاية ساعات النوم، أو إحساس بالمبالغة في الرقاد، فيما الجميع باتوا في صلب أعمالهم، حتى لو لم يكن لدى المتأخر أعمال، حتى لو كان عمله مسائياً، أو ورديات. كان ذلك الإحساس يعتريك، وتشعر بلسع الشمس التي تباكر على مرقدك الصيفي فوق السطح الترابي، فتهرب إلى الداخل، لسياطها وقع قارس أيضاً، وأنت في ظلمة البيت ذي

النافذة اليتيمة التي لا تدخلها إلا بعد الظهر؛ فمجرد النظر إلى ظل الدار الذي تقاصر، أو صدى صوت أبيك العائد من العمل يسأل عنك، أو هدهدة أمك التي تحس بمرارتها بين ثنايا الحنو، يجعلك تنهض متلبساً بجريرة لا فكاك سريعاً من أذيالها!

الأمر سيختلف – لا بدّ– حين يبدأ العام الدراسي، لكن السياط الصوتية تقسو أكثر، متشاركة مع الصباح المكفهر، والواجبات المدلهمة.

"كم كان سعيداً ذلك اليقظان أبداً، فجميع هذه التبعات مرتاح منها، وأعباء أخرى تلت: الحراسة في أثناء الخدمة الإلزامية، الدوريات التي لا تعني أعباؤها له شيئاً، البرامج التلفزيونية التي لا تفوته مهما تأخرت في السهر، والفضائيات تنهك قبل أن تنال من أعصابه، لكنه غير سعيد لعدم إحساسه بمفردات حياته المتعلقة بالنوم كباقي عباد الله.. إلاي! ربما كان سيسعد لو حكيت له ما أعاني من النوم ومن أجله، وسيسعد أكثر لأن حالتي مستعصية أو هكذا تبدو حتى الآن.

وما يزيد من حدتها أنني لا أستطيع الإفصاح عنها إلى أي كائن؛ حاولت ذلك مرات، لم يفهم من تقربت

منهم، رافقتهم، وساهرتهم، وحين كنت أفيق لا أجد أياً منهم، لم أكن أشرح، كنت أترك الأمر يجري ليتعرفوا إليه بأنفسهم، لكنهم يهربون، أو يغضبون يخافون.. يقرفون!

هل وصل الأمر إلى هذا الحد؟!

إذاً، لماذا تركت زوجتي البيت مرات، واشترطت لعودتها أن ننام منفصلين؟! لم يكن ذلك سهلاً، البيت صغير، الغرف لا تكفي مع الفصل بين نصف الدزينة من الذكور والإناث، الأولاد كانوا صغاراً، حين كبروا، اشترطوا عليّ الشرط ذاته!!

وإذا كان الصيف يهوّن الأمر، فإن الشتاء وأطراف الخريف والربيع تضاعف الاكتئاب الشتوي الذي يبدأ مع تأخير الساعة، حتى يكاد أن لا ينتهي!

سافرت خارج البلد للعمل، نمت في الورشات، هرباً من تهرب زملائي، ومن إدانة أرباب العمل. تأذيت من الرطوبة والظلمة والقذارة، عدت كليلاً أحتاج إلى رعاية، فمن يرعاني؟!".

*

ما الذي يحدث حين أسقط في النوم؟! أحكي، أتمنى، أطالب.. أشتم، أندب، أشخر، أتقلب ذات اليمين وذات اليسار، أحرك أطرافي العليا.. السفلى!

أعرف كثيرات وكثيرين يشكون من مثل هذه الأعراض؛ جربت أن أسجل ما يحدث حين أنام، كان يتعذر علي الرقاد حينئذ، وإن حدث، خرج المسجل بضوضاء ضاجة بلا انتظام، ولا مفهومة، لا أميز كلمة، أو حرفاً، أو صوتاً، أو صدى.. ترددات وإيقاعات ونشازات وطبقات.. كنت أحس بالرعب والاشمئزاز، ولا أستطيع الاستمرار بسماعها، فأشفق على الآخرين!

*

أعرف، وأتفهم أن يكون نشاط اللاوعي في حال النوم، لكن أي لا وعي هذا الذي يصدر كل ذلك؟! ويكون له كل تلك المنغصات؟! لا وعي فردياً أو جمعياً؟! بشرياً أو يشمل جميع الكائنات الحية؟! ولماذا اختارني؟! تكاثف، تمثّل، تصعّد إلى كل هذا الحد؟!

*

بعض الناس يتحلون بالهدوء، وأنت منهم؟! كانوا يمتدحون هذه الصفة، ويحترمونها، ليسوا كاذبين، فهي

تـريحهم مـن الصـخب، والتـوتر، والمشاكسـة، والتطفـل، والغلظـة، والأنانيـة.. كمـا يقولـون. هـي نعمـة، لا شـك، لمن لا يعرف النعمة الأخرى لديك!

ومـن النـاس من يتصـفون بالعصـبية، أو المزاجيـة، ولا ينزعجون إن عُرفوا بهذه الصفات، أو تحدث النـاس بها؛ بل ربما يشاركون في تعميمها، فيصبح لديهم مسوغ لكـل مـا يقومـون بـه قـولاً وسـلوكاً، وعلـى الآخـرين أن يتحملوا، درءاً للمشاكل، ودفعاً لـلأذى؛ علـى الآخرين أن يستوعبوا، ويتسامحوا..

لكن إلى أي حد يمكن التحمل؟! وممن؟!

في البيت، في الطريق، في محطة الحافلات، في الوظيفة، السوق، الدوائر الرسمية وغير الرسمية..

تسامحت مع الكثيرين، تحملت الكثير منذ الصغر: فـي المدرسـة مزاجيـة الأسـتاذ الوحيـد للمـواد جميعهـا، سطوة الوالـد القـادر المتسـلط، وقسـوة الأم المهانـة، قلـة المـوارد، وقهـر الأعيـاد، ومـرارة الوصـول إلـى الراتـب، وتعثر القناعة حتى بالمسلمات..!

كل شيء يدعو للاستفزاز، للقلق، للتوتر، للرد..

الآن، لـم تعـد تتحمـل حتـى نفسـك، ولا يتحملـك الآخرون أيضاً!

عليك أن تجد حـلاً، هل أنـت جيفـة متحركـة، تفح روائحها حين يتوقف وعيك؟!

هل أنـت مستودع نتنت مواده؟! وتخرج عناصره حالما يبتعد الحارس اليقظ؟!

أم.. كنت فيما مضى تحل مشاكل الناس، فتدخل حتـى بـين البصـلة وقشرتها، فتشبعت برائحـة البصـل؟! كنت لا تترك خلافاً يستعر، ولا تدع عراكاً يستفحل، ولا خصاماً يدوم.. حين تستطيع!

فما الذي حصل؟! وما الحل؟!

أعصابك تتحطم، قدراتك تتلاشى، صبرك ينفد؟!

هل تتوق إلـى نومـة أبديـة؟! وتسـعى إليهـا بنفسك، وتبحـث عـن الطريـق الأسـلم؟! وهـل تجـد حينئـذ مـن يـدفنك؟! حتـى السـمك قـد يعـف عنـك، قبـل أن يلقيـك البحر على الشاطئ؟!

ليكن ذلك، ما الذي يضيرك بعد كل هذا؟! ولماذا لا تترك نفثات جثتك تتوزع الجهات، لتنام برضا وأمان لمرة واحدة وأخيرة؟!

***

خروج

سأخرج من هنا؛ لم أعد أطيق وجودي هذا، لا أستطيع أن أحتمل أكثر.. الحيّز يضيق، والمدى ينكفئ، يتلاشى؛ أكاد لا أرى، لا أسمع، لا أحس..

سأخرج؛ مضى زمن طويل، كنت خلاله متكيّفاً مع الحال التي وجدت نفسي فيها، مختبئاً، مستمتعاً، حيادياً، منتظراً..

لا أذكر كيف دخلت إلى هذا الثقب؛ هل كنت مطارداً سدت في وجهي الأبواب، فلم أجد سواه؟! أم مستكشفاً دفعه الفضول وحب المغامرة إلى الوقوف على ما فيه، أم متطفلاً لم يعد يكفيه التنصت، فآثر الرؤية عن كثب؟!

أم أني عابر ثقوب لا يرعوي؛ من ثقب خرجت إلى ثقوب تختلف سعاتها وأشكالها وإمكانياتها.. وإلى ثقب أعود؟!

ليس الأمر جلياً، كما لم تكن المشاعر واضحة طوال الزمن الذي مرّ، ولا أستطيع تحديده!

إذا كان الأمر كذلك بالنسبة إليّ، فماذا يمكن أن يكون لدى الآخرين الذين قد يعرفون مكاني وحالي، ويِ ُخبَرون بالمدة التي قضيتها هنا، وبالفعل الذي أمارسه؟!

لا أنكر أنني استمتعت في لحظات كثيرة بمشاهد مثيرة لم تكن لترى لو لم أكن هنا، وانتشيت بأقوال وأصوات لم تكن لتسمع.. كثيرون وقفوا أمام الثقب المميّز، منهم من تقدم واثقاً، ومنهم من تردد قبل أن

يُقدِم، وآخرون عادوا من حيث أتوا، بعد طول تفكّر أو انتظار!

أمكنني أن أراقب ملامحهم جميعاً، مع محاولة التعرف إلى عناصر كياناتهم: العيون، الشفاه، الأيدي، الخصور والظهور والرؤوس.. والأرجل حين يظهرون من بعيد، أو يبتعدون.

وحين يكون في الباب أكثر من شخص واحد، تزداد الحيوية؛ فالاختلافات في الحركة والإشارة والقول واردة، ومتابعتها أكثر إثارة وانشغالاً لأوقات تطول.

وليست الحال في الجهة الداخلية أقل إثارة: تهيؤ كأنما على موعد، ترقّب أو تساؤل وحذر، وربما خوف وامتعاض وقنوط، ورفض..!

ويزداد الأمر حيوية حين يكون مواطنو الداخل متعددين ذكوراً أو إناثاً، ومن أجيال متنوعة؛ فقد يحدث تنافر، اختلاف، أو اشتباك غير معلن، يمكن أن يتحول إلى عراك حقيقي بعد انقضاء الأمر.

*

هل انسجمتَ مع الحال، فصرت تلعب مع نفسك، فتتكهن وتراهن على الوقت والخطا، والصدى مهما ناس، ابتعد، أو تخفّى في الأركان والظلام؟!

كنتَ تنتشي حين تصيب في التحديد فتصفق، وتتقلقل.. وتُحبَط حين تخطئ، فتضرب كفاً بكف، أو تضرب أياً من أعضائك المنكمشة المتضاغطة.. وتنسى نفسك وأين أنت، لتفاجأ بحركة معدنية قريبة، فتتكاثف، أو تضمحل أكثر، لتسمح بها دون عرقلة، ولتلاحظ بعدها ملامح الاستغراب حين تتكرر الحركة المعاكسة في الثقب ذاته، فلا أحد بالباب!

كم من الحركات تعثرت بسببك، واتهم المفتاح أو التوهم؟!

كم من الحالات التي مرت كان يمكن أن يقضى عليك بسببها، لو انكشف أمرك؟! ربما تعرضت لأذى مختلف، لو لم تكن قادراً على الإفلات بالانضغاط أو التلاشي في تجاويف قريبة أو بعيدة!

*

لن أنسى فترات الاكتئاب التي تداهمني، وتستوطن حين يطول الهجران: لا أحد في الداخل ولا زوار؛ فلا

يسمع سوى أصوات الحشرات الدابة أو الطائرة، العابرة والمقيمة التي تطيب لها الحال؛ أفكر حينئذ بالمقارنة بيني وبينها، وأنشغل بالبحث عن الاختلافات الممكنة التي تترك أي معنى لكياني ووجودي، يعيد إليّ قدراً من الثقة والإحساس بالحضور الجدي. وأفكر بالارتحال إلى حيّز مماثل؛ قد أفعل، لتعود الفصول ذاتها.. ربما!

قد يطول انتظار من في الداخل، فأعيش طقوسه المرة أكثر من أصحابه؛ وقد يتطاول الوقوف على الباب، فأخيب أكثر من الراجعين على أعقابهم بلا جدوى.

ظروف تملكتني؛ هل عشتها في مكان ما قبل أن آتي إلى هنا؟! وفي أي الاتجاهين كنت؟! وأية مواقف أثارتني وخيبات أرهقتني ؟! وكيف حدث ما حدث، فصرت هنا؟! وكيف اخترت هذي الحال؟! وهل خُيِّرتُ في ذلك؟!

هل هو قدر مرصود، أم غلطة، أم اختبار؟!

أي خطأ أرتكبه إذن حين أنشغل بتفاصيله عن معناه، وبملامحه عن جدواه؟! ويضيع مبدؤه ومنتهاه في حيثياته التي أغوص فيها!

*

الآن سأخرج من هذا الثقب؛ حاولت ذلك سابقاً، لم أوفق، أو لم أكن جدياً. لكنني الآن مصر على ذلك؛ فليس من المقبول أن ترتهن حياتي كلها، ويُنذَر مصيري لهذا الفراغ الذي يضيق، وليس معقولاً أن أبقى حبيس الأصداء والملامح المرصودة من كوة صغيرة مهما كبرت، وسجين الانفعالات التي تتولد حيال ذلك؛ عليّ أن أشارك في ما يجري، أن يكون لي حضور ما، فاعلية ما، أثر، رأي، فكرة، خطورة أو ملاحظة..

سأخرج من دون أن تكون مؤكدة أهليتي لتلك الحياة، وإمكانية أعضائي القيام بالنشاطات المطلوبة أو المرجوة في ما تبقى من عمر.

هل ستكون رؤيتي ممكنة؟! هل سيكون لصوتي وقع مؤثر، أو صدى منبّه؟! سيسألون.. لو قدر لي أن أكون كائناً معهم، منهم، مثلهم، عن الفترة الماضية من وجودي؛ وهل هو وجود حقاً، بماذا أردّ؟! وهل لدي القناعة بما سأحاول إقناعهم به؟! وكيف أسوّغ حضوري المفاجئ وغيابي الطويل؟!

سيسألون، ويتكهنون، ويقدرون، ويتصرفون.. كيف سأتصرف؟! هل أنتظر أفعالهم لأقوم بردّ لها؟! هل أبادر بحكاية بعض مما كان يجري، فأشغلهم بالتفكير فيه وبتفاصيله عن سؤالي ومحاكمتي؟!

وماذا لديّ، أنا القابع في الحيّز الأضيق والأضعف والأوهى، والأكثر إثارة للسخرية والازدراء؟!

قد يكون لي دور في تحقيقات مطلوبة، ودراسات ممكنة عن أفعال وردود لها في ظروف استثنائية بخصوصيتها وكائناتها وأوقاتها، وقضايا ومشكلات ظلت عالقة، أراد لها أصحابها ذلك، وقد يكون لي أثر في أحداث قيّدت ضد مجهول، ولدي معلومات كثيرة وتفاصيل لا تخطر في بال..!

سأبوح بأسرارهم، سأنشر فضائحهم، وأفصّل في مشاعرهم الحقيقية وتصرفاتهم الأصلية التي خبرتها خلال أوقاتي السرية، وكانوا يظنون أنهم وحيدون، سأجعل أحاسيسهم بعضهم تجاه بعضهم الآخر في متناول الجميع، وأرى ماذا يصنعون، وكيف سيتصرفون!

هل هذا ما كنت أبحث عنه، ما تواجدت هنا من أجله، ما قضيت جلّ عمري في تحصيله؟!

يا إلهي!

من أين تأتيني كل هذه العدوانية؟! وكيف أفكر في مثل هذه الشرور؟! ولماذا لا أفتش عن أسلوب آخر، تصرّف مغاير، أسلوب مشرق؟!

لكنهم مسؤولون عن كل ما جرى، تجاه الحياة التي لن تتكرر بالصورة نفسها والتفاصيل عينها؛ فما الذي فعلوه بي، بأنفسهم، بالأرض، بالكائنات الأخرى..؟! ماالذي يفعلونه، ويخططون مصممين متحمسين؟! إنهم يستحقون أكثر من ذلك؛ فكم أضاعوا من فرص، وهدروا من إمكانيات في ما لا يفيد!

وكم أضعت؟! أنا أستحق أيضاً!

أسمع أصداء تقترب، لن أتبينها، لم أعد أريد أن أرى شيئاً، لا أودّ أن أسمع شيئاً، يكفيني ما عاينت وتابعت وعايشت! سأخرج من نفسي، انتظروني قليلاً؛ هل جئتم إلى فعل فظيع آخر؟! انتظروا حتى أخرج، وافعلوا ما تريدون!

أصوات غائمة تتصاعد من الداخل والخارج، من الجهات كلها.

هل علموا بقراري فجاؤوا إليّ بكل هذه الحماسة؟! أم أنهم يتعاركون، أم ينتقمون؟!

الضجيج المتداخل يجتاح كل شيء!

أين أنا؟! أين الثقب؟! أين التجاويف؟! مهلاً.. لا أرى شيئاً، لا أسمع شيئاً. أين الثقوب؟! أين الجهات؟! أين الأصداء، أية أصداء؟!

النجدة.. النجدة..

***

السرّ

أعرف أن في الأمر ما يدعو للدهشة، لن أستغرب ردود فعلكِ التي خبرتها، وأقدر ما يتلو من مشاعر وأحاسيس لم تكن السبب في عزوفي، ولا الدافع لانقطاع علاقة تطاول عمرها حتى لم أعد أذكر بدايتها.

بعض الناس مولعون بالتذكر، تلك مصيبة؛ إذ يستهلك جزء من الوقت الإنساني المحدود، لن يعوض، حتى لو كان يبدو بلا أهمية؛ الأهمية أن بالإمكان احترام تفاصيل الحاضر لإغنائها وتجديدها، وبالإمكان البدء من جديد.

بعض الناس يحبون البدايات، لأنها تأكيد الذات والحضور الفعال.

لست منهم على أي حال، وليس عرضي هذا مشروع بداية أخرى؛ فما بيننا لا يحتاج بنضجه وغناه إلى قلق التخمين، وانشغال الحواس، واندفاعة المراهقة، وحماسة المغامرين. وإن كان لا يكاد يستغني عن وخز الترقب، ونتوءات التفكير في ما يمكن أن تكون عليه الحال بعد حين، وربما تعلق الأمر بالمسارات الممكنة، وجدواها في ما تبقى من سنين!

ستقولين: ارجع إليها! هل مللتها كما مللتني؟!

سأقول: لمّا أغادرها تماماً بعد، وقد لا أفعل!

قد تقولين، لو استطعتُ تفسير الكلمات التي ستتراكم مع السنين التي أحب ازدحام الأشياء فيها منعكِساً لوناً غريباً، وحركات مترددة، وظلالاً غامضة: ما الذي جاء بكَ إذاً؟! وماذا تبتغي من كائن لفظته الأيام، وضاقت به الدنيا؟!

لن تكملي: .. حين أدرتَ له ظهرك، ورميته في مستنقع الخطيئة وظلامات الندم!

لن أسوغ ما كان، ولن أدافع عن موقفي الذي لم يكن مفاجئاً لك، حتى لو ادعيتِ ذلك؟!

ولن أقول: إن عودتي دليل براءة، وكفى بحضوري تكفيراً عن خطأٍ لم أرتكبه!

سأقول: جئت من أجل الآتي، لا لإحياء الماضي الذي لن يكون إلا إذا ما عاد كل منا إلى ما كانه في المكان ذاته، والزمان عينه؛ هل هذا ممكن؟! إنه يعني أننا كنا خارج الحيّز الأرضي بشروطه وظروفه طوال الفترة التي عبرت، دون أن أتوقف عند طولها. فلسنا في ثغور هذا الكون الواسع، ولسنا من أصحاب المعجزات، إننا بشر فحسب!

ولأننا بشر، فهذا يكفي؛ بل يلزم أن نغتنم كل برهة لتحقيق أمر نحلم به، نتمناه، نحتاج إليه، ننتظره، أو ينتظره سوانا. ليستْ أفضل منك، تتقرّين ذلك من رجوعي، نباهتك لا تخذلك أحياناً؛ ولستِ أفضل منها! عفو عفويتك وتسرعك وكرامتك التي تبالغين في الحديث عن صونها، وستبالغين أكثر في الحديث عن تهشمها حين غادرتُ، أو سأغادر، لأنني أخذت منك الأغلى! لست أنانياً كما تدعين، كما ستؤكدين، كما أكدتْ حين غادرتُها، وقد أخذتُ منها الأعزّ!

أنا لم آخذ شيئاً، مستعد للمثول أمام أي محكّم إنساني، مستعد للتفتيش والقسم.. ولكن، هل فقدتما شيئاً؟!

لن أقول: ربما كان سواي من فعل ذلك، لأنني واثق من أن لاشيء ذا بال ينقص أياً منكما؛ وهل جرى ذلك، فيما لو جرى، عنوة، أم برضا وقناعة و.. رغبة؟!

ولن أقول إنني أعطيت الأغلى، ليست المنّة من عادتي، ولست متأكداً أنني الوحيد الذي يستطيع ذلك.

لا يذهب بك الظن، كما نبهتُها، إلى أنك كاملة. لكن الصيغة التي كنتِ عليها، هي التي أحببت، وهي التي تدعوني من جديد.

ستتساءلين بشفقة، قد تتساءلين: وما أدراكَ أن تلك الصيغة ما تزال صامدة أمام أنواء الحياة، واختباراتها الجدية؟!

وقد تتابعين إكراماً أو عتباً: ولا سيما بعدما لم يعدْ حراسكَ مهتمين!

مجرد تساؤلكِ هذا دليل على صدق حدسي، ربما لأنني أعرف فعالية الحصانة التي ترسخت خلال

وجودنا معاً. هذه ليست مفاخرة أو ادعاء؛ أتشكّين في ذلك؟!

لن تتركيني واقفاً بالباب.. لا أستطيع أن أتأخر كثيراً، إنها تنتظرني، رغم أنني لم أَعِدْها، لِمَ هي واثقة؟! لا أدري. هل كنتِ كذلك؟!

لن تألي جهداً للاحتفاظ بي إلى الأبد، سأتركك تجربين، لن أحرمك من متعة التجريب، أو متعة الخوف من فقدانٍ آخر.. وربما إلى الأبد!

ولن أحرم نفسي من لذة الاهتمام الذي تبدين، والانشغال الذي يهيمن على كل لحظة نكون فيها معاً، نحاول أن ننسى ما كان، والتغافل عما سيأتي؛ هل أنجح في ذلك؟! أنت لا تقدرين، أستطيع متابعة الوهن الذي يُسقط عينيك عن متابعة التحديق، والتردد الذي يضغط على يدي، والظل الأبهى من ملامحك وحركاتك، والصدى الماتع الذي يشع خلف نهداتك الحرّى وهمسك النشوان.

لا أتردد في القول إن فيك ما يجعل للحياة معنى، وفيها!

ولديها ما يسوّغ إضافة الأيام إلى العمر الذي يستحق أن يحسب، ولديكِ!

*

امرأة واحدة لا تكفي. تلك مقولة لن تعجبك، بل تلك حقيقة لن تقبليها، رغم أنك عجزت عن أن تثبتي بطلانها، وقد منحتك الفرصة الكافية، كما عجزتْ. هي الأميز لأنك الأولى، ولأنها اختيارٌ بعد تجربة.

لعلك تسخرين، لأنني أعود إليك؛ فهذا يبطل ما لديها من ميزات؛ هل تشمتين؟! لقد أضاعت الفرصة أيضاً! لن أقول إن هذا لا يزعجني، ولا يعني أن خياري الأول كان الأصح؛ بل يزيد من ثقتي بتفكيري، وهو برهان على صحة نظريتي، أو مشروعيتها على الأقل: امرأة واحدة لا تكفي!

ستقولين من باب العناد أو الاستفزاز اللذين تجيدين فصولهما:

– ولا يكفي رجل واحد!

لن أراهنك، كما فعلتْ؛ حاولت أن تفعل، ولكن رجلاً مثلي لن يكون من السهولة الاستعاضة عنه! ..لا يهم ما تقولين، ما قلتِ، ما قالت، أو تقول: مغرور، أو

غافل.. ستضحكين بخفوت ونشوة وغرور، وأنت تقولين ذلك، وربما فعلتْ ذلك أيضاً.

أعرف أن أنفاسك ليست بريئة تماماً؛ لم أربّك، هذا صحيح، لم تخلقي من أجلي، لم تُرسَلي لي وحدي.. لكن كل ما تفكرين فيه، أو كل ما تتوهمين، أو تتشهين سواي، لا يعدو كونه ترفاً، أو إفلاساً، أو عجزاً عن الحضور الندي أمامي.

أنكر إذ أقول: إن هذا لا يهمني، وإن ذاك الشخص الذي يراودك، وتحاولين استرجاع صداه البائس قبل أن أكون في حياتك، لا يستطيع، بكل ما وصل إليه من حضور وفاعلية، أن يربك خطواتي إليك، معك، بعدك..

لن أقول: إن مما يلوث حياتي أن نلتقي أنا وهو في خلفية رؤاك، أن نتلاقى على حلبة الصراع من أجل الفوز برضاك، أو اهتمامك..

لن تنكري أنك تستخدمين ظله، صدى سيرته، في حربك الباردة ضدي؛ أنت تعلمين، وأعلم أنها هدنة مؤقتة تلك التي تؤجل حرارة المعركة، وأن فوزي بك، أو قبولك بي لن يجعلا السلام يحل وتدوم فصوله!

وهذا ما أثبتته الأيام!

لا أستطيع نسيان اللحظات الشهية التي غمرتِني بها فجأة، بعد طول برود، لأكتشف بعد حين- الآن أخبرك بذلك- ولعلك كنت تعرفين، أنه كان يفضّ، بمشروعيةٍ هذه المرة، بكارةً أخرى، أو يحاول!!

سألت نفسي قبل أن تسألي: لماذا أعود إذاً؟! وأين الكرامة التي أتشدق بها، والفرادة التي أتوهمها، والخصال التي لا تضاهى؟!

لعل ذلك ما يجعلني أعود واثقاً من أن كل ما كنت تبدين تجاهه، ليس إلا محاولة منك للتلويح بسلاح تعلمين مدى تأثيره، وأنك لن تضحي برجل مثلي من أجل هيكل مثله.

أعترف أن له حضوراً في هذا الزمن الذي ليس زمني، أو زمن من كان مثلي، ومثلك.

واثق من أنك ستحاولين من جديد التشبث بي ونسيانها، أو قد يكون ذلك بسببها. وربما حاولتْ ذلك بسببكِ، وفشلتْ، ولن تملَّ المحاولة، رغم أن لديها، أو لعل ذلك، ظلال أنفاس أخرى.. أعترف أنني لا أستطيع قبول ظلاله القاتمة لديك، وأنني أخسر بمجرد أن أفكر

بذلك. ولا تربحين أيضاً. وقد تفرحين إذا ما قلت لك إن لدي سراً قد أبوح به، ربما جئت من أجله، ومن أجله غادرتُ، قد أغادر أيضاً. لكنني لا أستطيع قبول فرحك، ملامحه تشي بأنني لست الوحيد في فضائك الذي تدعين أنني أحاول إغلاقه بالشك أو بالاعتداد الواثق بالنفس، أو تضييعه على محبس مذهب، أو قبضة يد. وتقولين: حزنك يقتلني، لأنه يعبر عن خيبة تسيئ إلى إمكانياتي أو شخصيتي التي لا تضاهى.

وأقول، وتقولين، وتقول..

لكن السرّ عصي على البوح.. ألأنك غير جديرة به؟

ألأنها لا تستطيع تقديره؟!

لهذا جئت إليك، ولهذا قد أعود إليها..

"أو إلى سواها"؛ تقولين، أو ربما تتوهمين؛ كما تقول وتتوهم!

لكنني أقول: لستُ زير نساء، أو بياع هوى، أو مشترياً.

ولست سوى كائن يحلم بكائن آخر.. يستحق أن يوضع السر لديه، ليس في قيعانه العميقة، أو في ذرى غرته المشرعة؛ بل في أنفاسه ونبضاته!

لم لا تفتحين الباب الذي لم أطرقه إلى الآن؟! ولست متأكداً من وجودكِ في الداخل، هل هذا موئلك، أم هذه دارها؟!

لم أطرق الباب بعد، وقد لا أفعل!

***

العودة

لست في وارد البحث عن الفاعل؛ فالفعل ذاته يحتاج إلى دراسة وتحليل، لاستنتاج الغاية التي تبدو موضع تساؤل واستغراب.

لو كانت النية القتل فحسب، لما كان ذلك يحتاج إلى هذا الأسلوب الذي يعرض صاحبه لأخطار محتملة عديدة. ولو كان القصد السرقة، فإن السذاجة بل البلاهة وحدها هي التي تدفع إلى اختيار هذا الوقت، الذي يمكن أن يكون مناسباً لأي أمر غير هذا. هل المقصود الإزعاج فحسب؟! إزعاج من؟! لا شيء يدل على حال من التمرد؛ فالحارة طيعة، والاستقرار عميم! ولا تمثل هذه المنطقة شيئاً مهماً لتنقل الآثار الضارة إلى سواها،

وهي محصنة ضد أية عدوى. وباتت منذ زمن بعيد مضرب مثل في الأمن والسلام والقبول والرضا بالقضاء والقدر؛ حيث لا يصيبها إلا ما كتب الله لها!

إذن؛ ما الدافع إلى كل ذلك، وفي هذا الظرف، وهذا التوقيت؟!

سؤال حيّر المسؤولين الذين ارتأوا أن في الأمر مآمرة كبرى، ليست هذه الحادثة سوى شرارتها، وسيتم الوقوف على فصولها وتفاصيلها من دون أدنى شك.

*

من جهتكَ، لم ترَ الأمر كذلك، رغم أنكَ انشغلت به، وفكرت فيه ملياً حتى قبل أن تكلف بمتابعته، وقعدت تراجع التفاصيل التي توصلتَ إليها بعد تحرٍ مناسب، والتفاصيل الأخرى التي قد لا يعرفها سواك، وسواه؛ ذلك الرجل الذي عاد بعد أن توارى سنين. لم يكن له علاقات حادة قبل أن يغيب، ولم يكن له بعد من الأقارب الذين يخشون أن يقاسمهم التركة، ويسلبهم بعض ما صرفوا العمر في رعايته وجنيه؛ لم يعد إليهم، لم يبحث عنهم أو يسأل، ولم تسبق عودته شائعات، ولم

ترافقها حكايا. كان ظهوره مفاجئاً تماماً كما كان اختفاؤه.

هل قرر العودة سريعاً؟! لم يبدُ القنوط عليه, ولا آثار للخيبة. هذا ما يقوله من رآه، أسرّ بأنه رآه، وهمس بأن ظلال السعادة ما كانت لتخفى، والابتسامة لم تفارق ملامحه. لم يتحدث عن غاياته واستثماراته. لم يبحْ بما سيفعله. رغم ذلك، فقد امتلأت الأفواه والآذان بمشروعات وأهداف وأرصدة، تكهنات وتأكيدات ورهانات، أراض ومزارع وآبار ومصانع..

من يعرفه، من كان يعرفه يشكك في ذلك، ولكن لا يستطيع إنكار إمكانية تأثير الزمن والغربة والغنى. لا أحد يغامر بالشهادة الآن، ولا من يبوح بالسرّ الذي ادعى أنه خصه به، تبجح بهذا، وينكره. لم يعد كائن يعترف بأنه التقى به، رآه، حادثه، سمع شيئاً عن مجيئه، ولا حتى عن غيابه المفاجئ!

أوَ لم يأتِ حقاً؟!

سؤال طرح باستحياء..

سـؤال يمكـن أن يطـرح بجديـة أكثـر، يعمـم.. لكـن القضية ليست بهذه البساطة؛ هناك من يتابع، يتقصى أيضاً.

كـان يمكـن للعلاقـة بينكمـا أن تكـون أكثـر علنيـة أو هدوءاً وسـلاماً، لكنـك لـم تُرِدْ ذلـك، ولـم يهتم. لـم تكـن مطمئنـاً لعلاقاتـه الأخـرى، ولا لنشـاطاته، أو حتـى لا مبالاته تجاه القضايا الكبرى، أو تلك التي تراها كذلك؛ كان مهتماً بأشياء مغايرة، حاولتَ جاهداً مجاراته بها، وحـين لـم تسـتطع أن تعبـر عـن عجـزك، كنـت تشـحذ السلاح الذي ستنهي به المعركة، حين يكون من المحتم إعلان فشلك أو فوزه.

*

منذ زمن طويل لم يُسمع عنه شيئاً، سافر في طلب أهداف عديدة كان يطمح إليها، نجح كثيراً؛ لماذا كان يخبرنـي بإنجازاتـه، ويبـالغ فـي عرضـها؟! لماذا لـم يكـن يرسـل إلـى أي شـخص رسـالة أو خبـراً أو مجـرد سـلام، ويخصني بذلك؟!

صـحيح أنـه لـم يكـن يطلـب منـي أن أشـرح لهـم مضمون رسائله إليّ، ولكنه لم يعبر عن عدم رغبته في

أن أخبر أياً كان بذلك؛ هل كان مشغولاً بعرض ما أنجز، وما قال عنه أساتذته، وكتبته عنه الصحافة هناك، فنسي أي شيء آخر؟!

حتى موعد عودته خصني بذكره، من دون أن يُعلم أحداً آخر به، أو لا يصرح بذلك؛ أهله فوجئوا، حين جاء من يسألهم عنه، ويحقق في غيابه الأخير، كان همي منصباً على التأكد من أن أحداً لا يعرف برسائله إليّ، تلك التي كانت تصلني إلى مكان عملي مغفلة من اسم المرسل، وبلا أيّ سلام أو كلام تمهيدي. لماذا لم أحرقها، كيلا يراها أي ممن يمكن أن يسألوا عنه؟! كنت أعرف أنها لن تكون مفيدة لأيام ستأتي، ولم يكن ممكناً أن يقوم الزملاء بالإبلاغ؛ لعل من يقوم بذلك ساعي البريد، الذي لا أعرفه ولا يعرفني؛ فكيف كان يعطيني الرسائل من دون عنوان؟!

ساعي البريد.. لا أذكره، لم يكن من يحمل إليّ الرسائل، كنت أذهب بنفسي إلى صندوق بريدي، وأحصل على غايتي. استأجرت صندوق البريد من أجل رسائله، أخباره، أصدائه؛ ليس هناك من يراسلني في

هذا العالم المترامي رغم أهميتي، وموقعي الذي يستطيع أن يمنع ويجيز بجرة قلم أو إشارة أو هزة رأس!

وبالرغم من هذه الإمكانية، فقد بتّ أخاف على نفسي. ربما كنت المقصود في هذا؛ هل كانت رسائل منه حقاً؟! لم نتحدث في ذلك، لم أجبه على أيّ منها، ليس فيها ما يثير الشبهة والمساءلة. نعم، ما فيها بعض ما يبعث على الغيرة، والحسد، والانتقام.. لو كان قريباً، وقد اقترب لبرهة فحسب. وحدي من يمكن أن يقدم على ذلك؛ لا.. لا يحق لي، ما الذي أريده أكثر مما حصلت عليه؟! حتى سعاد صارت زوجتي، بعدما ملت من انتظاره، بل من مغامرته البعيدة الغامضة، وغاياته غير المحددة.. كنت سأحاول إقناعها بلا جدوى انتظاره، ولا معنى أسفاره، وكنت سأعمل على تشويه سمعته، والتقليل من إنجازاته، لو سألتني عنه يوماً، لو عرفت برسائله التي كنت أخفيها خارج البيت، والمكتب والسيارة.. ترى هل علمت بها؟! لماذا لم تسألني عنه، لماذا كانت تتهرب من أية كلمة، حين يذكر اسمه عرضاً؛ كنت أتقصد ذلك أحياناً، فتتبالَه، أو تتصامم؛ هي تعرف ألوان مشاعري نحوه، ومشاعر الآخرين، لا

شك في ذلك، حتى قبل أن يعتزم الرحيل؛ بل لم يخبر أحداً بذلك؛ هل أخبرها؟! تنكر هذا، وتقول إنها فوجئت، وهذا ما ساعدها على القبول بي بعدئذ؛ فهو لم يحترمها، لم يقدر وقوفها إلى جانبه، رغم تنكّر الآخرين بمن فيهم أهله. استشعرت الإهانة من فعلته، رغم أنها تفهمتها. فهي تعرفه، وتعرف أنه لا يقصد ذلك. لكن كان عليه أن يخبرها، لن تمانع. هل كان يُعلمها بإنجازاته؟! هل هذه الرسائل كانت موجهة إليها، وليست لي؟! هل استغلني، استغباني، استغفلني؟! هل تصلها رسائل أخرى؟! كيف يمكن أن يتم ذلك وقد أغلقتُ السبل إليها، رغم إظهاري عدم اكتراث وثقةً وأنفةً؟! ساعدني في ذلك ارتقائي في المناصب والمسؤوليات التي لم تنعكس لديها مبالاة أو اهتماماً؛ فالسهوم والأداء الآلي للواجبات المختلفة، حتى الحميمية منها، وردود الأفعال المثالية عنوانات يومياتنا؛ حتى صدى ما حدث لم يثر شيئاً ذا بال، رغم اهتمامي، وانشغالي، ومسؤوليتي تجاهه. هل تعتبرني مسؤولاً؟! لو كان ذلك صحيحاً لكان ظهر ملمح أو إشارة! هل أنا مسؤول حقاً؟! بتّ أشك في نفسي، وأشك في من حولي، من

يعرفون علاقتي به وفصولها الملونة، هل كانوا يعلمون بإنجازاته؟! متى؟! لا أعرف إن كنت قد اقترفت جرم الإخبار بها إلى أحد ما؛ جرم.. لأنه قد يكون المسؤول عما حدث، وقد يكون لدى الآخرين أيضاً نزوع إلى القيام بذلك، لأسباب تتعلق بهم، به، بي لاتهامي والإيقاع بي، والتخلص منا نحن الاثنين العلمين المتوازيين اللذين يجب أن لا يلتقيا!

هل كان قدومه انتحاراً؟!

كنت أحضر الرسائل بنفسي لأهميتها وسريتها. أحاذر في الحضور إلى مبنى البريد في الأوقات الميتة أول الدوام أو آخره، كيلا ألتقي بمخلوق. فكرت في أن هناك من الموظفين من يمكن أن ينتبه إلى هذا الحضور المريب. أو أن يتعرف إلي أحد، ويتساءل عن السبب الذي يجعل رجلاً بمنزلتي يقوم بنفسه بما أفعل، ولا أكلف أياً من أتباعي وموظفيّ.. ولماذا لا ترسل الأشياء إلى عنوان مكتبي المشهور؟! بت أحضر في الزحمة متخفياً بأي شكل أو هيئة، وأحاول التسلل بخفة بعد حصولي على الرسائل. صرت أغير أوقات الزيارة، وأخفي ما أجده في الصندوق. أفتحه بحذر وأنا واثق من

وجـود رسـائله، وواثـق أيضـاً مـن محتواهـا، رغـم نظافـة وجهَـي المظروف الذي يغلفها، وقد يختلف شكله ولونـه دون أن يختلف فحواه إلا في مجال تأكيد الفوز، وازدياد حضـوره المميـز علـى سـاحة المعرفـة والإعـلام.. لمـاذا كنت واثقاً من أنها لـي؟! وأنها منـه؟! أليس من الممكن أن يكون أحد ما وضعها في بريدي لغاية في نفسه؟! لم أشـك لحظـة فـي ذلـك، ولـم أتـردد فـي اسـتلامها و.. انتظارها؛ ولم أفكر في ضرورة وجود عنوان المرسل أو المرسـلة إليـه؛ كنـت سـأدهش لـو وجـدت عنوانـاً علـى المغلف، هذا الذي لم يحدث، إلا آخر الأمر..

ازداد قلقي وتوتري وانفعالي بعد أن فتحت المغلف، وصار ما صار!!

***

في الرقدة الحلوة

الظلمة تتكاثف؛ هي الفترة التي تسبق الفجر، أم أنها الظلال التي بدأت تواً؟!

تأخّر الصباح كثيراً، حتى بت أشكّ في طلوعه؛ لم أنم، حاولت، كان رقاد الأولاد قلقاً، لكنهم ناموا أخيراً إنهاكاً أو يأساً، فتسنى لي الخروج إليها.

لسنا على موعد، أَفَلتْ مواقيت اللقاءات، حتى ما صار منها أليفاً بل مألوفاً. تبددت أصداء الحوارات المشحونة، حتى تلك التي كانت من طرف واحد، وآثرتِ الابتعاد كثيراً.

كان على واحد منا أن يبتعد. اقتراح سمعته، قرأته، توهمته.. فغرقتُ في العمل، وغصتُ في الأوراق الأخرى، وتربصتُ بالأخبار والحوادث والزيارات..

هل كان ذلك للهرب، أم لإثبات حضور لا أراه في ملامحها؟!

كان على واحد منا أن يبتعد، لم أكن لأسمح لها بالخطو خارج مداري، ولا بالالتفات حتى إلى مصدر المنبّه. أحس الآن بهذا الحصار، لا أستطيع التوجه إلى الشرفة، أية شرفة؛ لا أقدر على الوقوف في النافذة، ولا الخروج إلى السطح.. الأماكن التي كنا نرتادها معاً؛ هل كان لها في ما يشبهها أوقات خاصة؟! كنت أحس بذلك ونحن معاً؛ تصمت كثيراً، تنكبّ على شيء ما بين يديها أو أمامها؛ تشرد، تنعس، أو تكتئب؟!

لم أكن ثرثاراً، لكن الكلام ينفلت أحياناً لكسر الفضاء الزجاجي الذي يغلّفنا، لأسمع صدى ما أو ردَّ فعل، حتى لو كان خشناً، لأنفّس عن احتقاني الداخلي، لأبدّد شكوكي.. ترى، كيف كانت تهدئ احتقانها؟! ألم تكن قاب طلقة من انفجار.. كما كنت؟!

*

الوعورة في الطريق التي فُتحت على عجل، والاشتباك العنيف مع بعض الأغصان المتطرفة، والرخاوة في التربة التي لمّا تجفّ إثر مطر ربيعي داهم.. لم توقفه عن غايته، الانحدار الحاد لم يحدّ من أفكاره المتسارعة. هل جاء يعتذر؟! هل اهتدى إلى ذلك

بعد أن سهر طوال الليل، يسترجع ما كان في سنوات تعايشهما المشترك؟! هل أخطأ معها؟! ألم يكن شكّه ظلماً؟! التزامها البيتي، ووظيفتها القريبة، وعلاقتها المحدودة مع المحيط.. ألم تكن أسباباً كافية للاطمئنان؟!

(لستَ السبب في ذلك كله، فهي ليست اجتماعية إلى هذه الدرجة؛ تأكدت من ذلك بعد ما كبر بعض أولادها، ولم تستطع أن تعمّق العلاقة معهم. تلك طبيعتي، كانت تقول. لا تتحمس لأمر، ولا تبالغ في التفاعل حتى في أكثر المقاربات حميمية. كنتَ تحنق أحياناً، لكنك تهدأ بعد حين لتقول: ذلك أفضل من أن تغمض عينيها وتتأوه! كنت ستحسب أنها تتخيل آخر! وليس أيّ آخر؛ بل ذاك الذي لم تستطع أنت أن تنساه؛ هل استطاعت هي؟!

هل يليق بك أن تفكر في هذا بعد كل تلك السنين؟! وهل يجوز أن تتساءل، أو يفيد، بعد أن غابت إلى الأبد؟!).

*

لم أكن على علم بتلك العلاقة؛ هل كانت علاقة حقاً؟!

لم أكن أفكّر في أن أيّاً كان يمكن أن يكون منافساً حقيقياً، وقد عدتُ من أجلها! ولم ألقِ بالاً للكلام الذي كان يتردد عنه: لقد ذهب من أجلها، وحين علم بما حصل، تأخّر في العودة، تأخّر كثيراً!

(بتَّ تترصد أخبار نجاحاته، وتتقفّى مصادرها، وتتصيد تواتر ملامحها حين يتحدث أحد بذلك أمامها. وحين تُذكر القامات الفارعة النحيلة الهادئة الواثقة، تفكّر في قوامك غير الممشوق، وجسمك الممتلئ، وطولك المتوسط، فتكتئب. رغم أنها لم تأتِ على ذكر ذلك أبداً.

تستطيع أن تذكر كلاماً يمكن أن تكون قد قالته، حين عودتك:

– أتمنى لو..!

ربما أجبت:

– كان يمكن ألا نلتقي ثانية!

خمّنتها تقول: حتى لو لم يحدث!

إذاً؛ كان لديها أمل، ما يزال، أن يعود فتلتقيه. فكرت في ذلك، من دون أن تفكر في

إمكانيــة أن يكــون كلامهــا يتجّــه فــي صــالح نجاحاتك؛ فهي ليست أنانية، تستطيع أن تؤكد في ذلك الآن نادماً ربما، وأنت تراجع ما يمكن أن يدور بينكما من حوار صريح، لو كانت الحال مختلفة. صحيح أنك نجحت أيضاً بعد جهد في مهنتك، وربما صار لك اسم ورصيد، بصرف النظر عن الطريقة والثمن، لكن ذلك كله لم يكن كافياً لإسعادها، أو لإحساسك بذلك!

لم تصل إلى قناعة بأي اتجاه، لكنك وقعت في الطمي الذي يزيد في إغراقك، كلما حاولت التحرك.

ولماذا كان ذلك؟! تتساءل في ساعات التأمل الصافي.

ظروفكما متعارضة مهنةً واهتماماتٍ ومواقع.. دروبكما متخالفة، لكنه العصر اللعين الذي أحال الدنيا إلى قرية صغيرة بلا زواريب؛ ترى؛ هل كانا يلتقيان في أحدها؟! لم تعد هناك أركان معتمة حتى في تلك القرية البعيدة؛ حيث تعرفت إليها ذات مهمة، قبل أن تغادر في مهمة أهم وأطول

مدة، لم تتحملها، أو لم تقتنع بظروفها، وأنت ترى أن لديك ما هو أهم. عدت، وكان النصيب!!

لم يعد في قريتك زواريب أيضاً، ولم تكن لك فيها لقاءات هامة كأترابك. لم تترك الطريق التي توسعت مجالاً لبناء قريب من دار العائلة. توزعت الدورُ في الأراضي التي لا تصلح للبناء كثيراً، كما لا تصلح لسواه، وابتنيت دارك المميزة بعيداً عن الناس والعلاقات والأقوال والعيون.. لم تحزن لذلك، هذا أكثر راحة؛ هكذا خمّنت!

هل تصلح مقبرة؟! لم تتساءل من قبل؛ لم تكن تتخيل أن يكون في هذا المكان قبر؛ لم تفكر في ذلك.. مقبرة القرية ليست قريبة، وأنت تفضل أن تظل قريبة منك، لا تستطيع أن تفارقها، حتى وهي في عالم الغيب؛ قلتَ ذلك علناً، حين طلب أهلها أن تعود إلى مرتع صباها؛ كم يشقيك ذكره!).

كان يُطرح مثل ذلك أمامها؛ كنتُ أقول: هذا غير منطقي؛ فللزوج والأولاد حقّ أن تظل إلى جوارهم، كي يحسوا بطيفها، ويأتلفوا بأصداء

الأمومة، ولكي يقوموا بالواجب تجاه ضريحها. لم تكن تعلّق؛ هل كانت تخشى أن تعبر عن رأيها، كما في حالات كثيرة؟! أم أنها تشك في قيامنا بالواجب؛ ها أنا أقوم بواجب الزيارة، وفي أكثر أوقات الليل ظلاماً؛ الرقدة الحلوة كما يسميها الآخرون! حقاً إنها كذلك؛ أليست رقدتها حلوة هنا في أرضنا وبين أشجارنا التي غرسناها معاً، وجوار البيت الذي ضمّنا؟! الرقدة الحلوة، يقولون، وينصحون بإقامة الطقوس الزوجية الحميمة خلالها، في مأمن من تطفل الأولاد الذين بدؤوا يكبرون ويفهمون؛ (لم تكونا تفعلان، لا بسبب الأولاد؛ بل لأسباب أخرى!).

لم أنم، لم تغرب عن خاطري، أراها في كل مكان من البيت؛ كنت أحتاج إليها في كل أمر أو خاطر.. أحس كأن بي شوكاً يتغارز في كل أعضائي، فقمت أشكو إليها، أبوح بمشاعري؛ وقد أترك لكل حواسي أن تعبر عما تحسّ بحرية، بلا حرج من الأولاد الذين لم يلحظوا مني ضعفاً ولا تهاوناً، ولا سيما في علاقتي بها!!

من أين أتتني هذه الجرأة؟! لم أكن جريئاً فيما مضى، في كل ما مضى، لأخرج في هذه الفترة الحرجة من الليل إلى البرية وحيداً. كنت أتوتر كثيراً حين أسمع حوادث وحكايات عن زيارات القبور الليلية.. الوحوش قد تبحث عن قبر طري، والكائنات الخفية تنشغل بمناسبة كهذه، والأرواح قد لا تغيب إلا بعد زمن!

أي مأزق بتّ فيه؟! هل أعود؟! وهل الحال هناك في أي ركن من البيت أفضل حالاً؟! البيت لن يهرب، سيكون لي فيه وقت وأوقات، وقد خرجت منه إليها.. أستعين بها، هل تعينني؟!

لم يعد القبر بعيداً، ولا الفجر، لم أكن أعلم أن للصمت مثل هذه الضوضاء، ولا لليل مثل هذه الحياة؛ أحس أن أصواتاً تملأ كياني وأنا أقترب، وأن كائنات مألوفة وغريبة تتحرك، تتصاوت وتشتبك! توشوش، أو تقهقه، أو تنوح!

لم يكن القبر ناهضاً حين تركناه فجر يوم أمس، وما زلت أنتظر انتهاء فترة العزاء، لأقوم ببنائه بشكل لائق؛ أراه أكبر مما كان، أم أن كائناً

متكوماً فوقه، هل هو حيوان متوحش؟! لو كان أهلها قريبين، لقلت: ربما كان أحداً منهم؛ أمها متوفاة، وغادر والدها وأخوتها مساء أمس بعد انتهاء المراسم. (إنه لعزاء حقاً، تنشغل بالقادمين والذاهبين والقاعدين، فتنسى المصيبة. كنت تحس بارتياح داخلي أنه بعيد، سيتأخر علمه بالأمر، ويتأخر حضوره؛ بل لن يحضر. لماذا كنت متأكداً؟! وهل كنت على حق؟!

المصيبة لا تلبث أن تعود، بعد أن تغدو وحيداً. تجتر ذكرياتك، وتجترع الأفكار والتهيؤات، وتتبدل الأوقات، تضغط على الأنفاس فتكاد تختنق.

وها أنت تحس بضيق في كل المسامات، وتعجز عن تمييز ما ترى، وتحليل ما يحدث؛ تعجز عن تبيّن الواقع بعناصره المشوشة..).

ماذا هناك؟! ما الذي يمكن أن يكون؟! حيوان مفترس؟! ما هو مصيري ومصير الأولاد من بعدي؟! هل أتراجع؟! سيلحق بي؛ ألتصق بجذع شجرة قريب؟! سيشتمّ رائحتي؛ أصعد إلى

الشجرة؛ أعصابي هل تساعدني على ذلك، وهل يمكنني الصمود فوق؟!

مـ مـ مـ ماذا لو كان جنّياً؟! بماذا تفيدني الشجرة والأشجار والبيت؟! هل أخطأت في دفنها هنا؟! هل كان علي أن أوافق أهلها، رغبتها، ورغبة سواها ربما؟! لا، هذا غير ممكن، الوحش، والجن، والجنون.. والموت أهون؛ هنا أفضل، هذا هو الحل الذي يريح، يريحني، لتظل في حيّزي، لتبقى للأولاد.. لي!

لكنه يتحرك، يكبر، يصغر، يتداخل، يتطاول.. ماذا أفعل؟! كيف أتصرف؟! أين أذهب؟! لا.. لا أقوى على الصعود، ولا الاقتراب..

(.. يتحرك، يتمدد، يتقلص؛ تضجّ في خلدك نداءات باسمها، هل أنت من ينادي، أو أحد سواك، أم أنك تتوهم! ولكن.. التنهدات والكلام والندب.. هل يخرج كل ذلك منك دون أن تعي؟! هل صرت بلا وعي؟! تهلوس، تهذي..؟!)

*

الكائن يتحرك، يحبو، يدبّ على أربع، يقف على اثنتين: قامة فارعة نحيلة.. تمضي في اتجاه ما!!

***

في الطريق إليها

- قتلتني يا..

كدت أقول.

تلفتّ حولي لأتأكد من أنني وحدي ما أزال.. وليس من غلام ولا خيل أو ليل.. ولست في بيداء؛ بل في ما يشبه أيكة، بل حديقة متنوعة الشجر والألوان.. لكنها تعرفني، أو هذا ما تخيلته أو أملته، وأنا أتحرك

في منافذها الضيقة، أتجنب ما يلح على إغلاق بعضها، إلى ما يمكن تفاديه بليونة ويسر.

يحق لها أن تنكر، تعتب بغلظة أو ألم؛ فقد مضى زمن بعيد لم أزرها فيه، لم أتبين معالمها، ولم أسأل. كنت على يقين من أنها تغيرت، فلم يبق ما لم يتغير.

– إلاكَ..!

– هذا أمر آخر.

– حال شاذة.. يعني؟!

– بل حال عنيدة، أو طبيعية.. كهذه البقعة التي..

نظرت حولي، ليس التغير حاداً؛ الشجيرات تطاولت وتفرعت، الأغصان تشابكت حتى كادت تغيّب السماء، وتضيع الجهات.. لكنني لم أضع السمت، ولم أكن في حاجة إلى دلّال. لم أسأل؛ فكرت، ترددت.. ليس من مسوغ؛ فأنا لست غريباً عن المنطقة، وعن هذه البقعة بالذات، لكنه البعد والزمن والعمر..

– لا.. لا تبالغ في ذلك، ما يزال في القرية من هو أكبر منك، وخارجها أيضاً من أترابك!

– أنت تقصد..

– أنا لا أقصد أحداً محدداً. أحاول أن أخفف عنك بعض أوهامك القاتلة!

– ومن طلب منك ذلك؟!

– لا أدري، هل الحق علي؟! هل أتركك في وحدتك؟! ألا تملّ، تكتئب؟!

كنت سأجيب: لقد جئت إلى هنا هرباً من الملل أو الاكتئاب، أو الهرب منك!

– لا، لا تكابر؛ لقد جئت من أجل أمر آخر!

*

تلفت حوله من جديد، وحيداً ما يزال، لا كائن في هذه السفوح. لم يلتق أحداً، ولم يسمع صوتاً. كانت هذه رغبته، فاختار هذا الوقت الذي يكون فيه الآخرون في دوامهم؛ لا رعاة، ولا حطابون، صيادون، ولا درّابون. يبدو أن الأمر لا يتعلق

بالتوقيت، حتى الدرب تبدو مهجورة؛ فلا آثار أقدام أو حركة، ما تزال المرتسمات التي شكلتها الطبيعة في آخر عاصفة على حالها، لم ينتهكها سواه!

– منذ متى أنت تَنتهِك؟! لو كنت تفعل ما جئت إلى هنا!

فكر في التراجع، ربما كان الأمر كله فخاً للإيقاع به، فقد يحدث ما يستدعي تحقيقاً مكثفاً، ليكون الوحيد الذي عبر إلى هنا، حسب ما تشير إليه آثار أقدامه.

– هل يصل تشكيكك إلى هذا الحد؟!

– بل شكي وربما قناعتي!

– حالك خطيرة إذن! وتستدعي العلاج، كما تقول زوجتك، أولادك، زملاؤك..

– هم الذين يحتاجون إلى العلاج؛ لو فكرتم جميعاً بما حصل لي لاقتنعتم برأيي، ولما دفعتموني إلى المجيء في هذا الوقت بالذات.

– وهل أنت ملاحق حتى هنا؟! ومن يعلم بمجيئك؟! من يتوقعه؟!

– الشيطان في كل مكان!

– لكنك جئت لتهرب من الشيطان، أو لتتطهر منه، لا لتقع بين براثنه.

– هي محاولة أخرى وأخيرة.

– هل سيأتي، أو ستاتي؟!

– من تقصد؟!

تلفت حوله بلهفة وعصبية، تحرك قليلاً من موقعه الذي يكاد يضيع فيه.

*

أشجار السنديان المتكاثفة، شجيرات الريحان والشيح، ومسميات ضاعت من ذاكرتك، كما تضيع العصافير في أحضانها، فلا تكاد تعرف إن كانت ما تزال تختبئ خوفاً، أم أنها لا تفر اطمئناناً؛ كانت كذلك، فهل ما تزال؟! لم تكن تخافك، وكنت تسعد بذلك؛ لم تكن تخاف الحشرات ولا الأحياء التي تدب، تقفز، أو تزحف. الحية تتجنبك بهدوء، ولا تكترث بها، صرت لا تكترث، فيمكنك أن تفرش قربها وتنام؛ بل تقعد وتمارس طقوسك المحببة دون فراش!

*

لم تستغرب أنك قصدت هذا المكان، لم تفكر في ذلك، كنت مشغولاً بالذهاب إلى مكان تخلد فيه لنفسك، لوقتك، لأفكارك، أو شرودك، أو مكان تسكن فيه بلا أفكار، أو توتر، أو مشاغل..

لم تحدد الهدف، حاولت أن تترك لإمكانياتك الأصلية أمر تحديده، فتقودك إليه. لم تخذلك، حدث ذلك كثيراً في مواقع أخرى ومسؤوليات كبرى.. لكن الحال الآن مختلفة, فما وقع قد وقع، وتحتاج إلى شيء أكبر من كل ما اعتدت على مواجهته أو الاعتماد عليه. لم تستغرب مجيئك إلى هنا، لكنك استغربت بقاء هذه البقعة المميزة بعيدة عن العبث العارض أو التدخل المقصود، الذي يضم الحراج باطّراد إلى الأراضي الزراعية التي زحفت في كل اتجاه، رغم كل القوانين والحراس والواشين؛ فلكل عقدة حلٌ، سرياً كان أو علنياً. تكاثرت الحلول وجاهر بها أصحابها، حتى صارت هي التي تبحث عن العقد، أو تدفع إليها.

– إلا عقدتي!

– بل مشكلتك، ليس الأمر متعلقاً بالعقدة؛ بل بك، بأفكارك، بأوهامك!

– حفظتهـــا، حفظتهـــا.. لا تسترســـل: زوجتك تقول ذلك، وأولادك..

– وماذا أقول لك إذن؟!

– دعني وشأني، أتيت إلى هنا لأهرب منهم ومنك.

– ولكن أين تهرب من نفسك؟! أم تظن أنه هنا، أو أنها تنتظر؟!

*

لست واهماً، أعرف أنها لن تأتي، مشغولة كعادتها بدوامها، وربما بأحفادها؛ وأنها قد تضحك مني إذا علمت بوجودي هنا؛ هي ليست بعيدة كثيراً، وليست قريبة. لكنها لن تأتي، ولا أنتظرها.. وهو البعيد، الغريب، بات غريباً، وليس من المتوقع أن أجد لديه الوقت والاهتمام.. لن يأتي، ولا أريده.. ربما!

– لو جاء أي منهما بمفرده، لن يكون طعم أو رائحة!

لو حل أحدهما بحلته الجديدة، لن أكون سعيداً، لا أريدهما، لن يأتيا، لا أنتظرهما!

– ولماذا جئت إذن؟! ألم تكن تنتظرهما، تسهر على وقتهما المشترك، تؤمن لهما الطريق والحدود؟!

وقف على طوله، نظر حوله ملياً في العناصر المتكاثفة بعناد. كانت تؤمن قدراً مهماً من الأمان والسلامة، ويتكفل بالباقي. أحس بالنشوة لتذكّر ذلك، مشى بتؤدة، تحرك بحيوية من يقوم بعمل نبيل، أخذ يغدو ويؤوب في حيّز ضيّق، غير عابئ بالأشواك والأغصان التي تضرب بلا هوادة..

– لكن، لم يعد لهما وقت مشترك!!

– أعرف، وما الذي يدميني إذن؟!

– هذا ليس جديداً، منذ زمن بعيد افترقا، وتباعدا بعد أن اقتربا كثيراً، حتى لم يعد بينهما مسافة للرؤية أو للتنفس!

– تلك هي المشكلة..!

– ولماذا لم تتدخل، فتدعوهما للالتحام من جديد؟! لماذا لم تدعُهُ إلى هنا، وتسعد وتنتظر؟!

– هذا ما يحزنني؛ لم يكن لدي الوقت الكافي، لم أسمع مبكراً، لم أسعَ إلى ذلك جدياً!

– لا ليس هذا هو السبب. كان ما بينهما أخطر مما يمكن إصلاحه!

– لا شيء يستعصي على النية الحسنة، والرغبة الحقيقية.

– إلا في هذا الأمر؛ لا تداور، ولا تقنع نفسك بما أنت غير مقتنع به.

– بل هذا ما أراه، رأيته، سعيت إليه، ثم..

– ثم ماذا؟! ألم يتهمك بها؟! أَوَلَمْ يقل لك: هي تريدني مثلك، وأنا لا أستطيع ذلك. اذهب إليها وأرحني منها، وارتاحا!

– ولكنني لم أفكر بذلك، لو كان الأمر كما تقول، أو كما يَتّهِم، لاغتنمت الفرصة، وتقربت منها أكثر؛ لا أريدهما!

– وبماذا تفكر إذن؟! ولماذا ظللت تقصد هذا المكان بعد زواجهما، وحيداً زمناً طويلاً، حتى قيل فيك ما قيل؟! ولو لم يؤمِّن لك عملاً، لانتهيت هنا!

– كما سأنتهي الآن؛ اتركني في همي، في ضلالي، هدايتي؛ اتركني أرجوك، أريد أن أحاسب نفسي، لأنني قصرت في مشروعهما، لم ألحّ كما يجب؛ كان يمكن أن يلتقيا من جديد. أنا السبب في ما آلا إليه، أنا السبب!

– لا تجلد نفسك، لم تكن وحيداً، لديك أسرتك وعملك، وهمومك، ومبادئك.. وأوهامك!

– أوهامي التي تأتي بي إلى هنا الآن؛ تريد أن تقول ذلك، وتتهمني.

– لا؛ بل هي التي أودت بك أيضاً؛ هل نسيت مصيبتك؟!

– لا، لم أنس، المشكلة التي ما تزال تتفاعل..

– هل جئت هارباً؟!

– أنـا؟! لا لا أبـداً؛ جئـت إليهمـا, مـن أجلهما..

شرد قليلاً، توقف عن المشي المتوتر. تحسس الأذى في وجهه وأطرافه وباقي جسده. انتفض بانفعال. ثم هدأ قليلاً، أعاد اهتمامه بما حوله، واستأنف خطوه..

– لو أنني صبرت أكثر عليهما، ربما كان يمكن أن أجمعهما من جديد.

– هل تظن أن ذلك ممكن؟! ألم يتغيرا؟! ألم تتغير أنت؟!

– لا أدري؛ جئت لأعرف ذلك؛ بل تركت نفسـي علـى سـجيتها، لأكتشـف إن كنـت مـا أزال..!

– وصولك، ووجودك هنا دليلان على أنك ما زلت..!

– هذا لا يكفي، لا بد أن يكونا على ما كانا عليه.

– لماذا تفترض عكس ذلك؟!

أحسَّ بضيق المكان. النفس مضغوطة، تخلى عن الحركة المكوكية، تنفس الخارج من شبه فتحة:

– لا أدري.. لو كان الأمر تغير، هل كنت جئت، وصلت؟!

وتابع بعد أن لمح التلة المقابلة، وأزاح نظره بسرعة:

– لا.. لا يمكن أن يتغيرا؛ لو كان ذلك، ما كنت جئت، أو وصلت؟!

– هذا يعني أن من الممكن أن يحضرا!

– لا.. لا أظن، لا أنتظر، لا أعتقد.. لن يحضرا.

– ولمَ أنت متأكد؟!

رنا صوب التلة غير البعيدة:

– لأنه صار هناك، منذ مدة ليست بعيدة..

– في المقبرة؛ هذا يعني أنك تعرف مصيره، ولست واهماً، كما ظننتُ!

– نعم أعرف.. ولم أتجرأ على مرافقته في رحلته الأخيرة؛ رغم أن رغبة بذلك داهمتني!

– لكنك جئت إلى هذا المكان!

لم يرد، استمر في تقصيه الذاهل لما في الهضبة.

– وهل تعرف أنها في الطريق إليها؟!

وضع يديه على رأسه، وصرخ:

– آه.. قتلتني يا..

***

الفهرس

1- العتبة 5
2- قمر! 15
3- في الضفة الأخرى..... 25
4- الدليل 35
5- طنين 47
6- مثلثات 55
7- النوم سلطان 65
8- خروج 73
9- السر 83
10- العودة 93
11- في الرقدة الحلوة 103
12- في الطريق إليها 115